



رابطة الأدب الإسلامي العالمية

مكتب البلاد العربية

٣١

فوهة الجرح

(مجموعة قصصية)

سكينة قدور

المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الثانية في

مسابقة الأدبيات في رابطة الأدب الإسلامي العالمية

العبيكان
Obekkan

مكتبة العبيكان، ١٤٣٠هـ

ح

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

قدور، سكيئة

فوهة الجرح./ سكيئة قدور. - الرياض، ١٤٣٠هـ

١٥٤ ص؛ ١٤ × ١٢ سم

ردمك: ٠٠-٧٤٨-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص القصيرة - الجزائر

أ. العنوان

١٤٣٠/ ٣٤١٠

ديوي ٨١٣،١٩٦٥

رقم الإيداع: ١٤٣٠/ ٣٤١٠

ردمك: ٠٠-٧٤٨-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

التوزيع: مكتبة العبيكان
Obeykan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

الناشر: مكتبة العبيكان
Obeykan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

obeykhalid.com

obeikandi.com



المحتويات

- ٧ من المسافرين منا ومن الراحل؟
- ١٣ فوهة الجرح
- ٢٢ مدينة المقابر
- ٣١ رائحة البرتقال
- ٣٩ عاصفة في القرية
- ٤٥ تائهة في محطات الدنى
- ٥١ قلوب باردة
- ٥٧ بحيرة الأكدار
- ٦٧ مناجاة تحت جنح الليل
- ٧٣ وماتت الفرحة..!
- ٨١ اللوز المر
- ٩١ ريفية..!

- ٩٩ تعلمي وضع النقط
- ١٠٦ الأمل والخريف
- ١١٥ المرأة
- ١٢١ انتظار تحت شمس الغروب
- ١٢٩ التلاشي في رحم الماء
- ١٣٧ غصن التينة!!
- ١٤٥ رائحة النعناع





من المسافرين منا ومن الراحل؟!

طرقات على الباب متخاذلة، مرتجفة، خائفة، مضطربة، متكسرة. تسابقت البنتان إلى الباب، فقد طال انتظارهما، ولم يأت الغائب المنتظر، والشمس مالت إلى الغروب. ما إن فتح الباب حتى ارتمى جسد منهك إلى الداخل، متناقل كتلك الطرق الخفيفة الغربية، فارقته حيويته ونشاطه، وكان الوجه مغبراً مصفراً شاحباً، غرب عنه نوره وإشراقته المعتادة، وفارقته بسمته العذبة الصافية.

جلس على عتبة الباب، والأختان تتبادلان النظرات بلا كلام، فالموقف هو الذي يتكلم، ويعبر عما تحمله هذه النفس الطارقة...، اتجهت العيون إلى المقبل، تسألانه في صمت وخوف، فتجيب القسمات الباهتة واللون الأصفر بلا حروف: لا أحد في الدار، كلُّ رحل عنها وبقينا نحن كالحمامتين ننتظر أوبتك، ننظر إليك لكي تعوضنا النظر إلى كل الراحلين سواك، هم سافروا وأنت الذي بقي لنا، لكن من المسافرين: هم أم نحن، أم أنت؟! من الراحل منكم: أنت أم هم؟!

إنك الآن في هذه الدقائق مسافر، وأنت الآن في منعرج العالم الذي سافر إليه خيالك وعقلك وروحك، فتجلت علامات السفر على جسدك، وتقاطرت حبيبات عرق الرحيل من وجهك. ولكن أين سافرت يا أخي؟! لحظات من الدهول خيمت على الثلاثي المسافر في زمن التيه، في بحر الفكر، وران الصمت على الدار فكأن من فيها أموات أو مسافرون. سبح كل في خياله، البنتان تبعثان عن سبب ذلك الوجود وتلك الرجفة المفاجئة، كل واحدة منهما تفكر في السبب وتعصر الذاكرة والخيال.. تبحث عن أم هذه المحنة الصامته، والأخ الصغير الذي حركته الصدمة وأفاقته من أحلام الطفولة، أكدت له أنه صار رجلاً.. هو الآخر يسترجع الحادث ويحلل أجزاءه.

لماذا ترددنا يا رفيق العمر القصير، ورفيق الطفولة الريفية المتشيطنة؟! لماذا ترددنا في السفر وقد رسمناه منذ أسبوع؟! لماذا انتابنا التراجع؟! لأن أهدنا خائف من السفر؟! لماذا توقفنا عند منتصف الطريق؟! لماذا يا حبيب عمري، كنت تلح علي بمواصلة الطريق وأرفض، وتلح فأستسلم لأحلامك؟! الأشهد رحيلك، أم ليجد كلُّ منا بعد ذلك طريقاً للسفر، ولأودعك ولا تودعني أنت؟! لأنك رحلت ولم تعد تعرف للوداع سبيلاً؟!!

أتذكر يا أخي، كيف توقفنا للمرة الثالثة نتعلل ونبحث لعجلة الدراجة عن علة تثبتنا عن السفر، أتذكر عندما كانت أصواتنا تتطاير تحت وهج الشمس فتحرقه، وتتعالى ونحن نعبد شريط الطفولة الرائع بطيشه وبرائه وصفائه، وتبادل الأمنيات أن نكمل شريط الشباب جنباً إلى جنب، ونقفز فجأة إلى رزانة الشيوخ، فيتخيل كلُّ منا الآخر



شيخاً حكيمًا يبوح له بأحزانه وأشجانه وأمانيه، بأحلامه، بذكرياته،
بماضيه.

وفجأة قاطعتني في لهجة حادة تأمرني فيها بالصمت، بالهدوء في
وقت أنساني العمر والشباب المكان الذي وصلنا إليه، والذي كم وقفنا عنده
في خشوع لا نعرف معناه، وحيينا أهله وتعرفنا عليهم ودعونا لهم، تلثم
لساني الذي اختلطت عليه الأفكار القديمة التي أراد أن يبوح بها لحبيب
عمره، وذلك الموقف المهيّب الذي نبهته إليه، وكم كانت دهشتي عظيمة
عندما سمعتك تردد تحيتنا الطفولية، تحية علّماها، ولم نعلم معناها ولا
الحكمة منها، وتنادي أهل مدينتك المسافرين النائمين مثل أهل البقيع:
السلام عليكم يا أهل المدينة، أنتم السابقون ونحن اللاحقون..!!

الشمس في كبد السماء، ونحن نحیی الرفاق المسافرين الذين كنا
نحييهم صباح مساء ما دامت مدينتهم تقبع وسط طريقنا إلى المدينة.
وبعدما أدينا الواجب نحو أولئك الراحلين، الدائمي الإقامة، غربت عنا
شمس الكلمات وبقينا نسير في صمت مثلهم. وصلنا إلى الهدف المرجو..
فجلسنا على الشاطئ، وأخرج كل منا صنارته، ورحنا نتسابق على ديدان
جمعناها بعناء منذ الصباح الباكر.. ونلقي بها إلى الماء، شمس الصيف
المتوهجة تفتح وجوهنا وأيدينا ونحن في شغل عنها، نقذف ما بأيدينا
إلى الأعماق؛ علّ سمكة تختار الرحيل معه وتتشد زيارتنا.

أيدينا تتشابك، وأنا أحرك الماء الهادئ فتتصاعد حبيباته، وأنت
لاشيء حي فيك سوى يديك، فقد كنت سابقاً في عالمك الخاص..
عندما رأيتك تجذب القصبه بهدوء وحذر علمت أن شيئاً قد علق بها،

لعل سمكة أرادت الرحيل أو كتب لها السفر إلى عالمنا منذ الأزل.. بينما كانت يدك تتحركان برتابة وتجذبان الخيط وأعيننا تترصد القادم بلهفة، فقد طال شوقهما وحنينهما لأيام الطفولة، حين كانت الأسماك تتهافت زائرة. بينما نحن كذلك تعالي هناك صوت بشري من الشاطئ الآخرها جم أحلامك وأوقف تيار شوقي، عندها ارتجفت يدك، وشحب لونك، وبقيت واقفاً أبحث في ذهول عن مصدر الصوت، وأدور بلا فائدة! وفجأة رحلت تجري ووجدت نفسي أتبعك بلا هدف.. بلا طريق أجري وراءك، والصرخات الخائفة المرتجفة تملو..

كم كنت غيباً حينها، كم كنت غيباً عندما تركتك تخوض في الماء، وكم كنت غيباً عندما بقيت أنظر إليك، ولا ألق بك؛ لأنني لم أكن أعرف السباحة!! أتأمل الماء الدوار، الهائج المصطخب، وأنظر إلى ذلك الطفل المستغيث والتيار يجذبه، فيصعد حيناً ويغوص حيناً آخر، وأتتبع حركاته الخائفة، وهي تعارك الأمواج، وتسرع إلى المستغيث. وبقيت وحدي من هنا، وذلك الرفيق الذاهل من هناك، ذلك الرفيق الذي يرمقك بعين أملة، أليس الغرق رفيق عمره كما أنت؟ ألم يترافقا؟ ألم يخططا لهذا السفر والعودة منه ولأسفار كثيرة بعده كما خططنا ورسمنا؟ جمدت أنفاسي عندما رأيتك تقترب مني، شخص بصري، ارتعدت فرائصي، وعشت اللحظات الحاسمة، وفجأة علا صوت جديد لينضم إلى ذلك الرجاء، وتلك الاستغاثة التي أيقظتنا من طفولتنا.. أفقت من ذهولي على صوتك، على نداءك، على صعودك، ونزولك.. سرت البرودة في عروقي، تجمد الدم بأعماقي من الوريد إلى الوريد، تجمدت نظراتي، وبقيت وحدي بعدما غصت وغاصت..



غرق المغيـث والمستغيـث وبقيت وحدي.. وبقينا وحدنا.. أهكذا
تأتي بي إلى الماء، فترحل وأبقى وحيداً؟! أهكذا تحتال علي وتقنعني،
وترغمني على السفر لتذهب، فأودعك ولا تودعني؟! أهكذا نساـفر معاً،
فتذهب وأبقى، أم أذهب أنا وتبقى أنت؟!

أهكذا يا رفيق طفولتي ومخزن أحلامي، تهرب بذكرياتنا وتغوص
بها؟! أهكذا يا حبي، تأتي معاً لنفري الأسماك بالسفر إلى عالمنا
فتجذبك وتقنعك بالرحيل إلى عالمها الأرحب..؟!

أهكذا نساـفر جميعاً بلا زاد.. بلا علم ولا خبر.. وتساـفر أنت
ويساـفر غيرك في كل يوم وفي كل عام بلا زاد ولا علم ولا خبر..؟! الأجل
هذا كنت تذكرني بإخواننا النائمين؟! ألهذا كنت تحرص على تحيـتهم
كلما مررنا بمدينـتهم النائمة الصاحبة؟! وما أكثر عبورنا..!! أتعلم يا
رفيق عمري، أن رحيلك وبقائـي.. سفرك وإقامتي؟! أو لنقل: إقامتك
ورحيلي.. بقاءك وسفري قد وضع حدّاً فاصلاً للطفولة.. علمني دوامك
وسفري المؤقت كيف أعد الزاد.. فسلام الله عليك أيها المقيم الدائم،
واني بك لاحق.. وحينها فقط أعرف من المسافر منا، من الراحل منا
يا أخي..!!



obeikandi.com



فوهة الجرح

كنت أراها دائما عندما كنت أمر إلى جناح عملي، أراها دائما تقبع عند مدخل جناح الأمراض غير المعروفة المعجزة لكل طبيب، القاهرة لكل دواء.

وأنا ألقى عليها تحيتي المعتادة لأنها أصبحت واحدة من معارفي، واحتلت مساحة من اهتمامي. كنت ألاحظ على محياها ابتسامة ثقيلة حزينة مدحرجة من تحت ركامات، من خلف بحر لحي أمواجه بعضها فوق بعض، ابتسامة مسلولة من تحت جبال رواس نبتت بأعماقها وتجدرت، وذهل الطب أمام جبروتها وشموخها.

وكنت أقرأ في ملامحها كلما دخلت جناحي أو غادرته آهات مكبوتة، أتحمس حالات غثيان متشعبة، مرة أراها تطوف بالرواق كمن ضيع درة في قاع بحر، وأخرى أراها تقف ذاهلة متكئة على تلك المدفأة المهترئة الصدئة! حيناً ألمحها من بعيد جالسة كالظل الهادي الباهت، وحيناً طوافة، وحيناً أراها ذاهلة بعيدة عن تلك البراكين الداخلية المرتطمة بأعماقها.

ولكن الذي لا تذهل عنه في كل تلك الحالات، ولا تتساه أبداً، هو ذلك الجرح الذي لا بد منه، ذلك الابن الخرافي الذي لا يحمله أمثالها إلا أياماً قليلة، ليفطم بعدها عن جراحاتهم عندما تلتئم وتجف، ولا يبقى منها غير الآثار. ولأن جرحها ما زال ينزف، فإنها لم تقطم ذلك الرضيع الغريب الذي يمتص ما يلفظه جرحها من بقايا.

قارورة صغيرة، متصلة بخيط رفيع يغور بعيداً عن الأنظار لا أدري نهاية حبله السري، لا أدري مكان رحمه، لا أدري مصدر قوته، زجاجة ذات خليط أصفر، أحمر، أبيض.. كلما رأيتها شعرت بغثيان ودوار.

وأصبح ذلك الوجه الغريب جزءاً من الهموم التي كان علي أن ألع عالمها الرحب الفسيح، وغداً ذلك الجرح الذي أراه ماثلاً كل صباح ومساءً جزءاً من الألفاظ التي عاهدت نفسي على فك رموزها، وصار لزاماً علي أن أغوص، لا بد أن أغور، لا بد أن أجد منقذاً.. فالأسرار لا تدركها البواب، ولا يفك طلاسمها غير الاختلاس.

ما إن تطأ قدمي ذلك الرواق الممتد، المفعم بروائح المرض والدواء والنعاس بعد سهر ساكنيه ليالي طوالاً، حتى أجد نفسي مشدودة إلى القاعة رقم (٧)، تسبقني عيناى إلى هناك، تبحثان عن الطيف، فألحقهما، أبحث عنه، أتحسس نبضاته الباردة، أبحث عن ابتسامته الغائرة في كنه غموضه.

وسرت إلي عدواها، هي تحمل همها وأنا أحمل همها، أحمل عذاب غموض لغزها، وسرت إلي نبضات فضولها، هي تسأل كل يوم الأطباء عن أم دائها، وأنا أسأل عنها..



أتعجب أحياناً من صبرها على تلك الربيبية المتشبثة برحم دائها،
 ينتابني حيناً الأرق لأجلها، وإذا نمت بعد جهد أحياناً، فإنني أستيقظ
 على كوايبس سوداء، على حالات غثيان.. أنين.. صراخ.. دماء..
 جراح.. بتر أعضاء.. بقر بطون.. أستيقظ لأعود إلى عملي بعد أن ظفا
 على سطحه ذلك السر، فأحياء وأعطاه دفقاً جديداً. ما عدت أستسلم
 لمانع يصرفني عنه، أو عنها، حاولت أن أتقرب منها أكثر، لكنها كانت
 تبتعد عني في خوف، ارتميت في عوالمها الفسيحة المهولة، فبعد أن
 كنت لا أزيد على التحية التي لا أتلقى عليها إلا نصف ابتسامة كالحة،
 أصبحت أسألها عن حالها، فترد غير عابئة: كما ترين!!.

وهل أرى شيئاً، أنا لا أرى غير ظاهر باهت اللون، ولمعرفة لونه
 الحقيقي لا بد من معرفة الباطن بكل ما يعج بداخله من براكين.. لا بد
 أن أجد فوهة البركان، لا بد أن أتحسس درجة غليانه، لا بد أن أعرف
 كيف أمنعه من الانفجار، وإلا فقدت صفة الأدمية، وحرمت عظمة
 الشعور بالرحمة، وما علي حينها إلا أن أرثي برودة مشاعري، وأبكي
 خواء روحي وقساوة قلبي، وأنا التي ترى الموت في كل يوم مرات.

تعمدت يوماً أن أدخل الجناح قبل الموعد المعروف، ما دامت آلام
 البشر لا تعرف موعداً، إنها لا تطرقهم إلا عندما يغادر، وإلا عندما
 يكونون في وحدتهم وخلوتهم، تنزل عليهم لتقاسمهم السهاد، وتهبهم
 أعظم هبة يتجرعها سقيم وهي الأرق، ولا تغادرهم إلا حين تلامسهم
 أجهزتنا وأيادينا الباردة. لم أجد الطيف الحبيب الغريب، لم أجد
 ذلك التابع الأزلي اللاصق به، وكأن الرواق غير الرواق، لعلي أخطأت
 المكان.. ولكن الحجر رقم (٧) جذبت نظري بقوة، واسم الجناح

وشكله وطوله، وتلك الرائحة المميزة، كل ذلك يؤكد لي عمق المأساة التي لا أعلم عنها شيئاً سوى خوف ينتابني، ورعشات رهبة قدسية تهز أركانني، وفجأة شعرت بألم متجذر يمتد إلى شرايين فؤادي، ارتفعت نبضات قلبي كمن ضيَّع حلمه المنشود، أو رأى أمنية عمره تتلاشى، وفقدت حزني العميق وسري الدفين الذي تبنيته برغم بعده عني وصار جزءاً لا يتجزأ من كل المآسي التي أحملها، طرت كالمهوف إلى الغرفة رقم (٧) حيث الكل نيام يتلذذون بالدقائق القليلة التي يفر فيها طيف الآلام وأصناف الحمى، ورحت أقلب بصري الذاهل في أركان تلك الحجرة الواسعة الخافتة الأضواء، وقعت عيني فجأة على سرير فارغ، ارتعدت فرائصي، تجمدت واقفة في مكاني، ورحت أحملق في الأجساد الممدودة؛ علَّ نفساً حياً يملأ فم جرحي أو يضمده، لمحت عينين شاخصتين لعجوز بلغت من العمر عتياً، رحت أسألها وأنا متجمدة أمام السرير المبتلع للسر، وببرودة كبرودة نظراتها وبرودة ألمها، أجابت دون أن تغير من ذهول عينيها العالقتين بالسقف: أعادوا لها العملية الجراحية. ومن غير شعور مني وجدتي أنهال عليها بالأسئلة، لم أرحم كبرها، لم أرحم ألمها وشيبتها، لم أرحم إجابتها الباردة الصامتة.. تساؤلات عديدة متضاربة لا انتظام لها.. أين.. لماذا.. كيف.. جاء أهلها!؟

أجابتي - من دون أن تتحرك أو تنتظر إلي - عن واحد من كل تلك الأسئلة الضجرة إجابة غير كاملة: لو كان لها أهل ما... كان آخر ما سمعته منها تمتامات ممزوجة بأنين خافت خضوت شمعة حياتها، أثنيتي عن أي سؤال لاحق، «هذا حال الغريب في هذه الدنيا»، لا أصدق، أعيد



على نفسي تلك الهمهمات والتمتمات، أحل نبراتها أليس الألم غربة؟ أليست لياليه الطويلة اللامتناهية أكبر موطن لها؟ أليس الاغتراب من أجل البحث عن فوهات براكين الألم غربة؟ انتشلني من طوفان تساؤلٍ لاتي الحائرة سعال حاد وحشرجات موت من ذلك الركن، أفقت من غيبيتي عن هذا العالم الشامخ بألامه، وقفت دقائق تحية لكبيرائه، دعوت الله في لطف وخشوع وخوف أن يرحم عباده، وخرجت متثاقلة الخطا إلى قاعة العمليات، ليس عندي غير أمل جريح ضعيف في لقيائها، لا أعرف لها اسماً ولا عنواناً، لا أعرف لها أهلاً، لا أعرف عنها غير تلك المعلومات البسيطة المعلقة على جانب سريرها، التي لا تزيد عن بعض المعلومات التقنية التي تخدم من يتداول عليها من الأطباء والمرضى..

منذ شهر، وأنا ألمح جسدها المهترئ المتآكل حتى النخاع، ولم أرَ أحداً طرقت باب جرحها. عند باب الحجرة ذات الأبواب الكثيرة والأجهزة الحادة والأقنعة الواقية والروائح الخاصة.. لمحت طيفاً متلفحاً في برنوس أبيض أحالت صروف الدهر لونه إلى الأصفر الممزوج بالسواد، رحت أقترب منه شيئاً فشيئاً، وكأن خيطاً غريباً يربطني به، لعله البقية الوحيدة الباقية لصاحتي المجهولة، كان منزوياً في ركن، والدموع تتساقط من عينيه، قرأت في عبراته معاني عديدة، دموع الحزن، دموع شقاء طالجت جذوره وامتدت إلى تلك الممدودة الآن على الطاولة، الغائبة في غيابات همها: أنت والدها؟! كان جوابه انتحاباً باهتاً لطول ما انتحب، فتجمعت ملامح وجهه، ويداه وشقوق كفيه وقدميه تحمل أطلال آلاف سني الانتحاب والأنين المكبوت.

عرفته ليس من ملامحه أو ملامحها، فليس لها ملامح معروفة لكثرة الطبقات التي تغشاها، عرفته من علامات حزنه، وعرفت أكثر صلته بها عندما كنت أواسيه وأحاول التخفيف عنه، فيبتسم مثلما كانت تبتسم نصف ابتسامة كالحة، ولا يلبث أن يلمّ شفثيه بقوة كالنادم عليها، وأعادو الكرّة، فيعيد ويزمّ شفثيه بعنف؛ حتى لا تنفج، سترها بعد حين يا أبت، سترها بعد العملية مباشرة.

وكيف نراها، وهذه عملية رابعة يا بنيّتي، دون أن يقفوا على علتها؟.. إن الموت ينتظرها، إنه أجل قد حان، ولا راد له.. ولكن لماذا أربع عمليات؟ قد أكون أدري بعلتها من طب الكتب والمباضع، حذرتهم من بطنها مرة أخرى، شرحت لهم الأسباب.. لو أعطوني وثيقة أقدمها للمحامي.. فالجلسة الأخيرة بعد غدٍ لعل قلبه يرقّ مرة واحدة في عمره، سبقته الدموع، فسالت على خديه لتحبس كلماته، لم أرد أن أحرك مرة أخرى جمر احتراقه، ولكن تلك الكلمات القليلة، وتلك المفاتيح القليلة التي فاه بها، أخذت تطرق أبواب السرفي رأسي، أحرقت كل احتمالاتي السابقة.. لم يكن المرض وحده الذي يثقل كاهلها، إنه ألم ينخر جسدها، وكثيراً ما كانت آلام الأجساد راحة من ذلك الألم الأكبر الذي يطعمه الناس بعضهم بعضاً.

وأنا أواسيه والأفكار تتصارع في رأسي المتعب. انفج باب غرفة العمليات، لم أنظر إلى ملامح الأطباء وإن كنت أعلم مدى تعبيرها عن النجاح أو الفشل، مددت بصري، غصت به إلى الداخل اختلاسا، كانت نائمة، هادئة نوماً لا أدري نوعه، لا أعلم أمده، وبسؤال صامت بالقسمات نظرت في وجه الطبيب المقابل، لم ألمح فيه شيئاً من



علامات الطبيب الفاشل بعد العملية الجراحية، أيقنت أن العملية نجحت، ونجاحها عندي ليس بمعرفة الداء وحده؛ لأن أحد مفاتيحه يكاد يكون في ذاكرتي.. تقدمت نحوهم بينما ظل الشيخ الهرم ينظر إليهم في استعطاف حزين ذليل، ورحت بألغاز الأطباء ومصطلحاتهم أشرح لهم حاجتي لرؤيتها، وحاجة ذلك الشيخ الغريب الذي وعدته بيني وبين نفسي بالورقة المرجوة، دون أن أدري عنها شيئاً. يكفي أن تكون شهادة مني، وقد رأيت جرحها، وعرفت أكثر مما عرفه طبيبها.

بعد جهد فتح لنا الباب، دخلنا ثلاثتنا، أنا والشيخ والطبيب المشرف على العملية.. دخلنا في هدوء ووجدناها ملفحة بإزار أبيض ناصع، لا يظهر منها غير وجهها، رأيت شيئاً في وجهها يتحرك، أحسست أنها تعاني، تريد أن تفتح عينها، اقتربت منها أكثر، قربت أنفاسي منها حتى أذكرها، كلما قربت أنفاسي منها فتحت عينيها أكثر، لعل دفاء أنفاسي ذكرها بدفاء ما عزيز عليها، فراحت تفتح عينيها قليلاً قليلاً؛ حتى لا تصطدم ببرودة الواقع، وأنا أقترب منها، أكاد أقبل وجهها الصابر الصامد الآمل، تحولت بعينيها ببطء نحو ذلك الشيخ العجوز ورعشات الشيخوخة تهز أركانه وتجرحه وترسم على ملامحه أخاديد الزمن، كانت تنظر إليه وكأنها تدعوه ليقترب منها، وتزحزحت من أمامها تاركة له المكان، ورحت أرقب، كانت تسأله بعينيها؛ لأن الشفتين كانتا مطبقتين، شاحبتين، وكان يجيبها بدموع وبعض الهمهمات التي لم أفهم منها شيئاً، غير نبراتها الحزينة وصوتها الدامي الشجي، غلبه النحيب، فتنحى عنها؛ حتى لا ترى بكاءه اليأس وزيارته الفارغة بالنسبة إليها.

أحس الطبيب بضرورة تدخله، انزويت بالشيخ العجوز في ركن من أركان الغرفة المملأى بالمقاصات والمباضع والكمامات.. والقفازات.. والإبر والقوارير.. وراح يحرك الخيوط، يبذل ذلك السائل المغذي من إحدى يديها إلى الأخرى، إلى رجليها إلى أنفها، صعدت البرودة إلى قمة رأسي، انخفضت درجة حرارتي إلى الصفر، تبدلت ملامح وجهي، رحت أتحنس وجهي، أدفتّه، وأتابع المشهد الذي كثيراً ما عشتّه أضعافاً مضاعفة، مضى الشيخ مهرولاً نحوها، وكأنه يبحث عن فوهة بركانها أو فوهات المتعددة الخفية. كنت أرى عمق الفوهة فيها وأرى نظراتها تغور، وأنا كالمشده أنظر، دنا الشيخ أكثر فأكثر، وفي أنين باهت سمعتها تسأله بكلمات متقطعة ممزوجة: ألم تحضر معك صابر وسمية، أدخلهما لأنظر إليهما آخر مرة، أنا بخير لا تخف عليهما، قد يمنح النظر إليهما جرحي عمراً جديداً، قد يغلق أفواه جراحتي ولو إلى حين، كانت تنن وهي تحسب أنها تناديهما، غلبته الدموع وامتزجت بإجابته المبجوحة الدامية، إنه لا يستطيع إحضارهما، فقد كانت المرافعة لصالحه، فاز بصابر وسمية، فلديه من يحضنهما ولديه مأوى يأويهما، ومال ينفقه عليهما.. أما نحن فإنك لا تملكين غير هذا السرير في المستشفى، حتى البيت ضيقها علينا أخواك وزوجاتهما. جرت دموعه، أخذ جناح برنوسه يجفف به دموعه وهو يعدها بصابر وسمية عندما يأتي لزيارتها في المرة الثانية، ربما غداً.. ربما الشهر المقبل.. ربما العام المقبل، قد يجدها، وقد لا يجد شيئاً غير ملف برقم ورموز!!

كنت وأنا أتابع المشهد، أستنجد بعيني فتخونني، أستنجد بعقلي المرهق؛ كي أحتفي في حناياه في غيبوبة إرادية، لا أفيق منها إلا على



الفصل الأخير من هذه المأساة، أغمض عيني حيناً، فأرى الطبيب وقد اختلفت الخيوط في يديه، مضطرب الحركات، دافع العينين، كل ما حولي في هذه القاعة الباكية ينتحب، حتى جرحها.

كانت فوهة البركان أكبر، لفظت كل دواء؛ لأنها في حاجة إلى أن تخرج همومها المكبوتة، انفتحت فوهة بركانها في سكينه وهدوء، كان انفجار البركان هادئاً، صامتاً، لا شيء يميزه غير رفضه للحياة، وخلصه مما صمد أمامه من حمم واحتواه حيناً من الدهر.

نامت صاحبتى المجهولة، نومة هادئة مريحة، نامت نومة أخيرة أبدية، وهي تحلم بيوم جميل هادئ، ترى فيها صابرها وسميتها، ولكن في عالم آخر!

لملمت أوراقى، لملمت دموعي، سددت فوهة الجراح، ورحت أبحث عن طفليها اليتيمين؛ وفاء لصحبتها الغريبة.



obeikandi.com



مدينة المقابر

كانت أمه تخيفه دائماً، كما أخافت كل أطفالها بالغول والعنقاء، وبالجن والمقابر!. كانت الأسرة تحيا في سعادة المعدمين المدقعين، والسعادة في عصرنا طبقات ودرجات، تملأ قلوب أفرادها المحبة، ويفعمها حنان يغطي ما تعانيه من ضنك الحياة، وينسي ما تتجرعه من ظلم العباد بعضهم بعضاً.

هي أسرة سعيدة بذلك الجحر الذي هي محشوة فيه، والذي دكّ بدوره تحت سلالمة العمارة المثقلة بأدوارها وطوابقها الكثيرة، كأنه يحمل على كاهله الهزيل كل الساكنين، وكل المترفين بما عندهم، وهم كثرة في العمارة من ذلك الحي الذي اصطلح الرأى العام على تسميته: «حي المترفين»، حي المترفين المثقلين بكل شيء في الحياة، حتى المساواة والظلم، وحتى الشر!. ولكن هو حي المدقعين الذين يخدمون المترفين بلا مقابل، أو مقابل صفع وشتم وركل وبعض الدراهم!.

هم سعداء بأبيهم الشيخ الكبير، وقد اشتعل الرأس منه شيباً،
وبقبوعه الدائم في ذلك الجحر الصغير الذي جاد به عليه صاحب
العمارة، وملاً عليه ضيقه بعلب من السكر، وأخرى من الشاي وعلب
سجائر، وشيء من الحلوى ولعب الأطفال، وأشياء أخرى قد لا
تشتري!!.

وهم سعداء برضاه، بذلك الرزق الضئيل وما يدرّه عليه الجحر،
وهو الشاحب الهزيل كشاة أم معبد الهزيلة، ولكن لا يد رحيمة كيد
المصطفى صلى الله عليه وسلم تدرّه وتسقي القائم عليه، أما الأيدي
التي تمتص جهده فقائمة وأمثالها كثير!.

وهم سعداء بطفولتهم التي راحت تدفع عمرها الغض الطري
ثمناً للأمراض الحياة وظلم العباد، طفولة غضة ندية تقضي اليوم في
الطواف على بيوت الأغنياء؛ لتخلصها من قماماتها المتراكمة بقدر
تراكم ما في الجيوب المتعفنة الكريهة الرائحة كرائحة بعض مصادرها
الظاهرة والخفية، وسعداء بتلك الدريهمات القليلة التي يعودون بها
في المساء، وإن كانت لا تكفي، فإنهم يكملون بعض ما يحتاجون إليه
من تلك الأكياس السوداء التي تلفظها بيوت الأغنياء، ومن ذلك الشيء
الغض الذي تجود به بعض سيدات البيوت، والجيدات منهن قلائل!!.

وهم سعداء بذلك العمر الشقي الذي يقضونه في الشوارع فوق
أكوام القمامات، وأتأنهم المنهك الهزيل مثلهم يلهث من حملة
الثقل وجوعه وهزاله، وقد زاده العباد ظلماً، وقيدوا قدميه العاريتين
الشاحبتين بمرتاج من حديد، ومفاتيح غلاظ وسلاسل؛ حتى لا يهرب

من جوعه وعبئه، ولا يفرّ من ذلك السوط الغليظ الذي تعود عليه ظهره
العاري من الوبر، الحامل لمئات من وصمات السياط.

وهم سعاداً بأهمهم، وقد أحنى الدهر ظهرها، وما حان وقت
انحنائه..

سعاداً بصمتها الحزين وهروبها من كل سؤال عن نعيم
الآخرين..

سعاداً بهزالها، وبالطفل الرضيع الذي ليس كأطفال الآخرين،
فقد غطاه الشحوب، وأذبل نظرة عينيه شحّ السنوات العجاف على من
حالهم كحالها، السمان على ذوي البطون المنتفخة.

سعاداً بأهمهم في صبرها على عمرها الضائع في صعود وهبوط
بين طوابق العمارة، وجهدها الضائع بين سيدات البيوت المنتفحات
من كل شيء.

سعاداً بها؛ لأنها تعود إليهم أحياناً برغيف أو حساء أو بقايا
زيت وصابون وملح، وأحياناً ببقايا أثواب أطفالهم القديمة؛ لتستر بها
عري أبنائها، وتعود أحياناً بقليل من الدعاء البارد مثل الصقيع المر
كممرارة عمرها، الخارج من جوف الحناجر الباردة المتحجرة لا من
نبع القلوب؛ لأن تلك القلوب لا تمنح دفتها إلا لطائفة من البشر تعرف
بما يفوح منها من أريج وعطور وعضن.

سعاداً بنومهم في ذلك الجحر الأضيّق من جحر ضب خرب،
الأظلم من بيت غول سمعوا عنه حكايات وقصصاً.

وسعداء؛ لأنهم لا ينامون حتى يخرجوا بعض الأثاث العتيق الذي
أكلت عليه الدهور.

وسعداء بذلك الفراش المهلهل، وذلك المهراس الذي لا تمحي
آثار النائم فوقه لعام، فكيف وهم يتقلبون فوقه كل يوم.

بل إنهم كانوا سعداء بكل ما عندهم، راضين، قانعين، وأحياناً
غير خانعين؛ لأنهم يئسوا من طعم الخنوع المر والصمت الدليل!!.

ذات ليلة من ليالي ذلك الحي البهي، كان أكبر الأبناء واقفاً عند
باب العمارة ينتظر رشاشات من البرد وقصفات من الهواء البارد تلمط
جسمه الدافئ العاري، تصفعه فتسري موجات البرودة القاسية في
كيانه الغض، فيرتعش وينكمش على بعضه، ويلتف في شظاياها المرتجفة،
بينما هو كذلك جاءه صوت جديد، وقفت في الباب سيارة ذات طول غير
معهود، وصوت غير مألوف، ولون اختلطت فيه كل الألوان تحت ضوء
الليل غير العادي. إنه صاحب العمارة، صفع الأبواب ليسمع من لم يسمع
صوتها الجديد الطراز، ومضى في كبرياء! وفي كبرياء وتجبر أعطى
الطفل المفاتيح؛ لينظف وإخوته ذلك الكائن الغريب. ولكنه هذه المرة
غير العادية أصم أذني الطفل بتحذيراته ووصاياها وتخوفه من أذى ذلك
المخلوق الجميل؛ لأنه غير عادي، ولأنها سيارة ليست كباقي السيارات.

راح الطفل يلهث، وتسرب إلى الجحر؛ ليعود ومعه أخواه وكلهم
سرور وبشر؛ لأنهم قد يكونون أول من يداعب مثلها، نظفوها، طهروها
مما قد تكون خرجت به من محلها الأول، فصارت ذات صفاء وطهر
مثل قلوبهم الطاهرة.. وعاد السيد صاحب أثواب الحرير؛ ليأخذ منهم



المفاتيح، ويجلس على الكرسي الوثير، ويدير محرك السيارة الكبيرة، فيجري الطفل الذي صيرته السنوات رجلاً، ويفتح باب السيارة؛ ليطالب بالأجر، إن لم يكن أجر الغسيل، فليكن ثمن البرد الذي صفح أجسامهم الندية، وكان حظه ركلاً وصوتاً غاضباً كالصاعقة «حذار.. حذار» فقد لطخت ما غسلته يداك.. وأي أجر تريد..!!؟

نام الجميع، ولم تتم عينا الطفل الذي كان أول من رفع صوت الرفض ضد الخنوع الذي أدمى قلب الطفل، ونسي شيب أبيه، وانحناء ظهر أمه وصبرهما الدؤوب، ونسي الشوارع الضاجة بمن لا مأوى لهم غير الزوايا القفر، وغير الخرابات إن كانت قد بقيت خرابات لم يعمرها مساكين بعد!!.

لم تتم عيناه من العقاب الذي صبّ على رأسه من أمه وأبيه، ولم ينم لأنه أحس أن عقاباً آخر قد يتعدى على مساحة جسمه الصغيرة ليغزو أبعاد أسرته. ولكن النعاس، وإن تحده الأطفال، وحاولوا الانتصار عليه يغلبهم ولو في الصباح. وما إن غلب النعاس جفنيه حتى اختطف الكل لضربات قوية على الباب.

إنها إيذان بالرحيل، وإيذان بالهجرة، بل إيذان بالترحيل والتهجير، إذ إنهم كفروا بنعمة البشر، ولم يكن كفراً، ولكن الرفض عندهم كفراً! وقول: (الآه) عندهم كفراً! ولفظ الحق عندهم ارتداد وكفراً!!

جاءهم ببواب جديد لم تشيبه الحياة، وصغار يقفزون في مرح، وينظرون في غرور وكبرياء إلى أولئك المطرودين إلى المجهول، ولهم أن يتباهوا وأن يمرحوا.

نهض الأب الشيخ ورعدة الشيب تهز أركانه، وراح يرجو ويتوسل
ويذرف دموعه. ولكن إصرار البواب الجديد وحمله متاعهم الحزين
الضحل إلى الخارج جعله يستفيق، ويسأل العمر الطويل الذي قواه
في خدمة الأسياد، وينهل منه درساً توجه به إلى الطارق الجديد...:
«سيأتي اليوم الذي تطرد فيه، فلا يغرنك يا ولدي، هذا التبسم
الباكي، وهذه الضحكة الصفراء الشاحبة التي لا تعطي شيئاً، وتأخذ
كل شيء...» أخذ بيد طفله المتمرد كما قيل له، ومسح بيده على شعره
المغبر المجهد، وراح يحزم ويحزمون ما عندهم. تعاون الجميع على
حمل ما يقوى أن تحمله الأيدي، ولا يسقط منها مهترئاً باكياً.

بعدما ملأ الخوف النفوس أيقن الجميع أن أرض الله واسعة.
فباتوا الليل في الخلاء، كانت من أسعد لياليهم، فقد علمتهم أن
الحياة أوسع من ذلك الجحر الخرب، وأن الدنيا أرحب. ومرت على
الجمع المكلوم أيام عذاب سود في الفضاء الرحب، هي سود بذلك
الفراغ الذي يعودون به كل مساء صفر الأيادي، فارغين من كل خبر
عن مقر جديد، وعذاب بتحريها الزائد عن الحد بامتدادها الخرافي
اللامحدود، وبعدها عن صوت زاجر أو أمر، أو صفة، أو دعاء باهت،
وعذاب بتغلب الأطفال على كابوس الغول والجن والعنقاء الذي طالما
أسكن الرعب في نفوسهم.

عندما نام الصغار أطرق الشيخ يفكر عن سبيل ينقل به الخبر
لزوجه، فقد قضى يومه يطوف باحثاً عن مكان جديد لا يطرده أحد ولا
يصده أحد! فتش في كل الخرابات، وكل البناءات القائمة، فوجد فيها
العامر بأمثاله، ووجد الفارغ الحزين، ووجد المهلهل المتداعي الجذر.



عاش صراعاً حاداً بين الصمت والبوح، وخشي «أن يصمت دهرًا لينطق كفرًا»! أخذ يعصر القلب، ويدفع بعنف تلك الكلمة الجائعة اللفظ.. المشبعة المعنى، يدحرجها، اهتزت حباله الصوتية، وانفجرت شفثاه، وازداد بريق عينيه، ولم تنزل كتلة الجليد الضخمة، فسبقته إليها: لماذا لا نذهب إلى مدينة.. وغلبها الصمت، فأكمل ببرودة دم: تقصدين مدينة المقابر!! على نغمته المفزعة تلك استيقظ الصغار في ذهول، وكلهم يسأل في صمت عن المدينة، وكلهم يعلن رفضه لها، ويفضح خوفه الطفولي منها، وقد غرسته فيهم أهمهم في الصغر.

لكن الأم انفجرت بالبكاء - وهي التي ذاقت من الأحياء - وراحت تقنع الصغار: ألا ترون، ألم تنظروا الذي لاقيناه هناك.. برد وذل وصفع وركل وشح وبخل ومنع اشتكاء، كم أفواه، وظلم صباح مساء.. قد حيننا بينهم ورضينا بحجرهم، وسعناه بصبرنا، فضيقوه علينا بظلمهم والدنيا أرحب من أن يضيقها بشر!!

- عاشرنا الأحياء وعرفناهم، فلنجرب هؤلاء، ولنر هل يطردون

البشر؟

أجابت الطفلة:

- وكيف يطردوننا، وهم أموات؟!

- ما داموا لا يطردون البشر، فإنهم أحبابنا!!

الأطفال يسألون، وهي تجيب ببسمة مضيئة بعد يأس وحنن، والأطفال يعلنون عن خوفهم، وهي تقتله بمعول صبرها ويقينها أن

المدينة.. أرحب وأن أهلها أرحم. وإن كانوا نياماً، فهم بأيدي الحيارى
والحزاني والمهجرين من خارطة الوطن التي تمتد صباح مساء بالدعاء
لهم قعوداً. وهم أحياء بإيوائهم أولئك الذي وسعت قلوبهم هموم الدنيا
وذقت مرها، وإن سماهم الناس أمواتاً، وسموا مدينتهم الشامخة
بلطفها على الأموات الأحياء من البشر: مدينة المقابر!!

هي الحياة بين جحر وقصر وقبر! وإنما يقاس الرحب الفسيح منها
برحابة الصدور، لا بالقصور!!





رائحة البرتقال

رذاذ خفيف كانت حبيباته تنزل على خمارها الأبيض المسدل على كتفها وصدرها، وتلفح أحياناً وجهها المشرق. لم تعره أي اهتمام، فقد كان الفكر مشغولاً بفضاءاته الرحبة، وكان يحث قدميها على السير الحثيث والإسراع، فلا تشعر بنفسها إلا وهي ترى الخطوات الواسعة المتسارعة الراكضة. تتوقف حيناً تستنشق أنفاساً جديدة، وتدخل إلى رثيها هواء بارداً رطباً، تلتفت يميناً وشمالاً.. كان الطريق خاوياً إلا منها.. ثم تستأنف سيرها وتعود إلى سرعتها ولهفتها..

أحلام كثيرة راودت ذهن المربية المتمرنة.. تخيلت المشهد بروعته وجلاله وجماله.. تراحمت المشاهد في مخيلتها، تراكمت، وهي تشق الطريق في ذلك اليوم البارد المنيئ بجلول الشتاء، بقدم حلة الثلج البهية البيضاء. تراءت لها تلك الوجوه السمحة، وهي تخلع ثوب الحداد عن قسماتها وتودع مسحة الحزن المعهودة.. تخيلت تلك الحنجرة الصداحة وهي تجأر بالقرآن.. تجلجل أرجاء القاعة التي لا تفتح إلا مرتين في العام، وما أشد شوق الأطفال إلى تلك الذكريات.. الثالث من (ديسمبر) والرابع عشر من (مارس) من كل عام!!

أخذت تنصت بقلبيها لتلك التلاوة المميزة لذلك الطفل الرجل، المدغدغة لقلوب غلف تكاد لا تفتح للذكر! ترى ماذا سيختار هذه المرة..! راحت الآيات تتصاعد في أعماقها.. ﴿عَسَّ وَوَوَّعَ ۝١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ .. ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ (فرامل) مذعورة كبحت جماحها بعناء عند قدمي المريية.. توقفت أمامها سيارة فاخرة.. أطل منها وجه عريض تتدلى من جميع جهاته أكوام الشحم واللحم.. تكاد العينان تختفيان وراء تلك الطبقات..

وقفت مذعورة دون حراك.. هداً الرجل من روعها باعتذاره عن سرعته المجنونة، سألتها إن كان الطريق الذي يسلكه يؤدي إلى «مدرسة صغار المكفوفين». ردت عليه بالإيجاب إيماء برأسها وإشارة بأصابع يدها إلى ذلك المبنى القريب..

قطع الرجل تيار أفكارها لتجد نفسها أمام لافتة عريضة توسطت الشارع، تشير إلى تلك المناسبة: «هلموا لمشاركة المكفوفين عيدهم العالمي..» هرولت مسرعة، اجتازت الباب الخارجي، تقدمت نحو البهو المتطاوول. كانت تسبقها صيحات الأطفال وضجيجهم الموحى بشيء من الفرحة، الحامل في حناياه أنغام البشر والحبور، وكلما تقدمت ازدادت الصيحات شدة وحماسة.

وقفت في قلب البهو تنظر إلى الجناحين، الجناح (أ) والجناح (ب)، تنازعتها مشاعر عدة، فلطالما سعت إلى العدل بينهم جميعاً، ولطالما قسمت حنانها الفياض بعدل على الجميع، لم تغضب أحداً

منذ دخولها، متمرنة إلى هذه المدرسة. ولذلك التفت حولها الصغار، واتخذوا منها الملاذ الذي يحتمون به، والصدر الرحب الذي يحتضن همومهم واهتماماتهم، ويغدق عليهم المحبة والرحمة بلا حساب.

ترددت بين الجناحين، وقررت أن تبدأ بجناح البنات، فهن في حاجة إليها أكثر من أخواتهن للخروج إلى الحفل بما يليق بالذكرى والحضور.. اقتربت همسات حذائها الخفيفة، فإذا بهن يخرجن هاتقات: «معلمة شفاء»! والمربية بالداخل تصرخ وتتوعد وتهدد إن لم تعدن لإكمال باقي الترتيبات...

التفطن حولها، واحدة تمسك بيمنها والأخرى بيسراها، وتلك تشد طرف جلبابها، وأخرى مدت يدها تتحسس شيئاً يقربها من طيبة القلب تلك، فلم تبق لها زميلاتها غير المحفظة، فتشبهت بها.. دخلت شفاء المرقد، كانت الأسرة مقلوبة رأساً على عقب، الأذراج مقلوبة مبعثرة، رائحة القدم تلف المكان، والمربية تتأجج غيظاً، كلما رأت البنات يتحلقن حول هذه (المتربصة)^(١) الجديدة جنّ جنونها، واختلقت ألف عذر لتعذيبهن على ذلك الاختيار، على تلك الطاعة العمياء، على ذلك الحب المتسامي. طلبت منهن شفاء أن يرتبن أسرتهن أولاً لتساعدهن بعد ذلك على الاستعداد للحفل.. بدأت بأصغرهن «سناء».. وراحت تضيء مسحة من النظام والاحتشام الذي لا يخلو من لمسات جمال على هندام كل واحدة منهن إلى أن أتت إلى أكبرهن «مريم» التي كانت قد ارتدت جلبابها وخمارها.

(١) المتربص أو المتربصة هو الشخص الذي ينتظر الوظيفة الرسمية في عرف بلاد المغرب العربي.

خرجت البنات، وهن في كامل استعدادهن للحفل، خرجن هاتفات
بأناشيد وأهازيج تعبيراً عن مدى الفرحة الكبرى بالأعماق، لا واحدة
تزاحم الأخرى، أو تنوي الوصول قبلها.. كن أبصر من بصير.. سناء،
فوفاء.. فزينب.. فمريم..

وراحت شفاء تحث الخطا نحو الجناح المقبل، وعيناها ترقبان
ذلك المشهد الطفولي الرائع.. تتابع الخطوات، تتحسس الأنفاس،
تسمع دقات القلوب. وقبل ولوجها الباب ارتسم مشهد ثانٍ لا يكاد
يختلف عن سابقه، الفتيان يتقدمون نحو البهو ويهتفون باسم شفاء
والمربي المتربص خلفهم.

تقدم الجميع نحو قاعة الاحتفالات، أخذ الأطفال أماكنهم
المعهودة دون ضجيج. لا تكاد تسمع إلا الهمسات والأنفاس الثملة.
اكتمل المشهد!!

بعد جلوس الجميع صعّد مدير المدرسة إلى المنصة، رحب بكل
الذين حضروا لمشاركة هؤلاء الصغار فرحتهم، بالوالي.. بالمدير..
بالوزير.. بالتاجر الكبير.. وكل أعيان المدينة الذين لم يفوتوا الفرصة..
بالأصحاب.. بالأحباب.. رحب بالجميع وشكر أولئك المتطوعين ببعض
الدريهمات وبعجول وخراف... و... وإحياء للعيد.

وجاء دور المقرئ الصغير الكبير ليعود خيال شفاء إلى البحث في
قاموس ما يحفظه من الذكر العزيز، وتهتز نفوس الحضور استعداداً
لذلك الصوت المؤثر الذي طالما أفاقها من غفلتها وهزّ كيائها ورسّم
ما ران على القلوب من صدأ. الكل متأهب لتلقي تلك النفحات الربانية
الخارجة من أعماق الفتى المضمع الصدر ذكراً.



وقف.. أمام المكبر، اعتدل في وقفته، وراح صوته الندي الأجلش
يخترق الأسماع والبصائر، يغوص إلى أعماق أغوار النفوس.. يدغدغها،
يحركها من سباتها.. الكل ذاهل أمام ذلك المشهد العبقري.. ﴿يَأَيُّهَا
النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ
كُلَّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ
سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن
يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ [الحج: ٣-١]. ﴿أَفَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى
الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ [الحج: ٤٦].

تفتست شفاء بعد لحظات من الخشوع والذوبان في تلك المعاني
السامية المتسامية.. بمن وهبها السمع والقلب إلى عليين، وسرت
بذلك الاختيار الموفق وتلك الخاتمة التي وخز بها الحضور ﴿فَأْتِنَاهَا لَا
تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ [الحج: ٤٦].

وأعقت ذلك أنشطة عديدة تفاعل معها الصغار ومزجوها
بأرواحهم، بأنفاسهم، فكانت آيات في الإبداع الطفولي النقي البريء،
والتنظيم المحكم، والانسجام والتناغم العذب بين كل العناصر
المشاركة.. أناشيد ومسرحيات.. حكم وأمثال.. وختم الحفل بمسابقة
أعدّها المربيان المتمرنان وتطوعا بجوائزها البسيطة للفائزين.

وجاء موعد الإكرام في يوم المعوقين العالمي، إكرام هذه الشريحة
المهمشة من قاموس المجتمع، الشريحة التي لا تذكر إلا مرة في العام.
دعا المدير الجمع الغفير إلى المطعم. وقادت المريبة الأطفال نحو
الأجنحة!!

الكل يحث الخطأ نحو المطعم، وقد أخذت رائحة ما لذ وطاب من الطعام تغزو البطون النهمة، وسط ذلك الزحام كانت شفاء تقف مشدوهة أمام ذلك المشهد الثاني والوجه الثاني لهذه الذكرى بعد مشهد الطفولة. وفي تناقل لحقت بالموكب.. أخذت مجلساً قريباً من الباب حتى ترقب الصغار وهم يتأهبون للدخول لمشاركة هؤلاء الكبار فرحتهم ويومهم. وأخذت الأطباق تنزل أمام الضيوف، اللحوم بأصنافها وأنواعها من لحم العجل والخروف والأرانب والدجاج.. بين مشوي ومقلي ومحمر ومسلق... وحلو ومالح... و... وتطوع بها بعض الحضور من أجل إدخال الفرحة على قلوب صغار المكفوفين بهذه المدرسة.. انشغل الكل بما حوله من زاد.. أما شفاء فهولت نحو نائب المدير تسأله عن موقع الأطفال من هذا التكريم، فهم الذين يجب أن يتصدروا المكان.. أجاب بابتسامة صفراء زائفة أن المرية أخذت نصيبهم من الطعام إلى الجناح؛ لأن المكان هنا لا يسع الجميع.

لم تقتنع شفاء بالجواب لكنها كظمت غيظها، حتى لا تلفت الأنظار إليها، جلست إلى الطاولة وراحت تدفع اللقيمات دفعاً، وكأنها تتجرع غصناً، ما دام الأطفال لم ينعموا بهذا الخير الوفير. التفتت يميناً وشمالاً، كل مشغول بما بين يديه. كانت في شيء من الخوف تأخذ شطائر الخبز وتحشوها بأصناف اللحوم والأجبان والأطباق الشهية الأخرى وتدسها في محفظتها الصغيرة.. ترفع عينيها خلسة نحو سائر الأطباق لتجدها قد أفرغت من محتواها أو كادت.. ليس في المشهد غير الأيدي المتحركة، الصاعدة النازلة.. وترفع الأطباق الخاوية ليأتي دور الفاكهة، فتتعمم الأطباق بما لذ منها وطاب، وتعود الأيدي



إلى حركتها السابقة فتتظاهر شفاء بأكل بعض موزة لتدس باقي نصيبها من ذلك الحفل وتخرج مهرولة نحو الأجنحة.. لكنها وجدتهم في الساحة جميعاً يتحدثون عن الحفل في حماسة وشوق، وعن الأداء الرائع الذي قاموا به.. أحسوا بوجودها فأسرعوا نحوها، التفتوا حولها.. فهم لا يعرفون الوجه الآخر للحفل الذي تجرعه المريية وحدها، كانت أنوفهم الصغيرة تتحسس تلك الروائح المنبعثة من محفظتها وتحاول تفكيك رموزها وفرز خليطها.. لكنها لم تكن تعرف شيئاً منها.. عدا رائحة واحدة.. هتفوا بصوت واحد: «رائحة البرتقال».. أكلتم البرتقال معلمة شفاء!!

دمعت عيناها.. كتمت أنفاسها؛ حتى لا يشعروا بما تعانيه لأجلهم.. فتحت محفظتها وراحت تقسم بينهم ذلك الزاد القليل الذي أحضرته لهم وفاء ليومهم السنوي.. كم كانت قسماتهم مشرقة بتلك البقايا والقطع الصغيرة من الخبز واللحم وجزيئات الفاكهة.. تعالت أصواتهم وتخميناتهم في تحديد تلك الأصناف.. فلم تصب أنوفهم غير رائحة البرتقال.. تركتهم شفاء يتنعمون بذلك النزر اليسير من إكرامية الذكر التي ما كانت لولاهم.. ووعدتهم بالمجيء غداً..

خرجت شفاء ورائحة البرتقال تزكم أنفها وتمازج أنفاسها، وهي تعد نفسها بإحضار ما يكفي تلك الأفواه الظمأى من البرتقال.



obeikandi.com



عاصفة في القرية

الحلم الباهت اللون.. المكفهر الجبين يتلوى، يتمزق، يضرب الحواجز المنيعه بأنامله المتعبة، الغارقة في أحوال الهموم الحالقات.. ينادي الإله ويرجو الخلاص.. نزل الجليد كالقدر وحلّ الظلام كصحراء لا أول لها ولا آخر.. لملم أشلاءه؛ لتلا يغزوها ذاك الجليد ويخطف دفتها ولطفها، ويطفئ الظلام شمعتها الضئيلة. البرد ينزل فوقه كصاعقة عاد، وريح الشتاء تضرب أشلاءه الحزينة كأنها ريح ثمود الصرصر العاتية.. تضرب رأسه العاري الخاوي من الأحلام، تبدد فكره، تهاجم مناجاته الصاعدة في الفضاء إلى رب العباد.

الحلم الحزين يئن، يتلوى، والطفلة المرأة تتأوه، ترجع صداه بالأعماق فتكتم الصدى. من ينظر إليها يدرك حزنها الصامت المكبوت، أما أناتها ودموعها فبالأعماق تدفن، بأدغال النفس المنتظرة رحمة الإله، رحمة الرحمن الرحيم.. عندما تدفن الآه بالحناجر، عندما تخنق الدمعة بالمآقي.. عندما تسجن الشكوى بالفؤاد.. عندما ترغم الطفلة هذه الآيات أن تنام دون حبوب منوم، عندها تصعد أنفاسها

الهادئة وهي راکعة ساجدة، صامئة هادئة، مناجية من لا تأخذ سنة ولا نوم، وتعلو الوجه بعد یأس.. بعد حزن.. مسحة من ضیاء.

الآهة المبحوحة تنزف دماء تندهرج.. تتمزق، یرهقها الظلام، تدفعها الدماء للتفجر، فتکبح جماحها الحناجر، حنجرة عربية دامية، تضمّد جراحها العميقة وتخنق التأوه، وتخنق المآقي دمع عين هدّها السُّقم.

نامت العيون وباتت طفلة امرأة لا تنام، الليل عندها شرّاعه التأمّل والسهرة، والدمعة المسجونة بأنهار تنفجر، تتحرر تحت أجنحة الظلام، تنزل كالدماء، تحمل جراحها وتجرح المآقي والخدود، ویصعد الرجاء في ظلام ليلها الرهيب لربها الرقيب.. رباه إن رأوني بالنهار صابرة، وإن یخالني العباد من هموم هذه الدنيا خواء فإن قلبي قد تعب، یعيش بالنهار صمته وصبره الدؤوب ویجأ لربه بذنبه ویرجو منه رحمة، یسأله الإغاثة.. تصلي للرحمن، وترتل القرآن، تصد حزنها الغریب، تفتح الأبواب في هدوء وقومها نيام.. تخرج للفضاء، تسیر في فجاجه الرحیب، تدوس صمته الرهيب، تحرك أقدامه عیدان تبین أو قصب.

اللیل ینشر شذی عطره، یطلقه مکفراً عن ظلامه المهيب، مغشياً لباسه الحزين بالسرور والبشر. غاصت القدمان الصغيرتان الحافيتان في أكوام القصب والتبن، راحت الطفلة تتفزز بين ذاك الحطام، تسحب رجليها بخوف وحذر، وتتخير مواضعها مستأنسة بسكن الليل وهدوئه، محاربة الخوف من عذاب جديد بامتداده السرمدی وسكينته المطبقة، فاللّهُ محیط بكل شيء لا یعزب عنه مثقال ذرة.

لم أخاف وليس عندي في الوجود غير ربي؟! لا يدوم الأهل.. لا أم ولا أب ولا.. إلا من أتى اللّهُ بقلب سليم.. ولكن لا بد من بر الوالدين..



وفجأة اعترتها قشعريرة شديدة عندما تذكرت الوالدين.. وراحت تتساءل عن ذلك الكائن الذي لا معنى له، ولا وجود في نظر أهل القرية كلها عن أمها. أين هي الآن يا ترى؟ هل أجدها في جحرها المعتاد، أم أن أيدي السوء تسربت إليها تحت ستر الليل؛ لتعبت بعفتها مثل ما اعتادت أن تفعل؟!.

راحت تبوح للإله بالعذاب، تسأله الشفاء والفرج، وتكشف بين يديه عن تلك الألغاز التي عجز عقلها الصغير عن إيجاد تفسير لها، بعدما قتلت أماله، وأطفأت شمعة ذكائه الوقاد. وهل يريد أولئك الشداد الغلاظ طفلاً ذكياً.. إنهم لا يريدون طفلاً تكبره أحلامه.. لا يريدون طفلاً يحلم بالنتوق والنبوغ، يرنو إلى غد أفضل لا تغشى سماءه سحب الجهل والكبرياء.. لا يجوز أن يحلم الطفل عندهم بغير الحلوى واللعب، وإن سمح قانونهم البشري لأحلامه بالثورة بعض الشيء أو التمرد، فلا يجوز أن يحلم بغير حال أمه وأبيه.. إن كان الأب راعي أبقار.. وإن كان حفار قبور فلن يسمح لعقلك الصغير وخيالك المتخمم بقصص البطولات والنبوغات.. والعبقریات الفذة، لن يسمح لك بولوج باب غير التي ولج أبواك، «حجر حرام ألا تلك الدهاريس»، وأنت أيتها الطفلة المرأة.. بماذا تفكرين.. بماذا تحلمين..؟! تحلمين أن تكوني أم المؤمنين خديجة.. عائشة.. الزهراء..؟! ماذا دهاك..؟! لا ترفعي صوتك؟ يكفيك الهمس، يكفيك لمح للظلام بالبصر، أو إشارة بنان، وإلا حملت هبات النسيم حكاياك، شكواك ونجواك وأسراك؛ لتسجن خلف قضبان العادات والتقاليد.. تحبين أن يكون حالك كحال تلك اللاشيء، النائمة الصاحية، الحاضرة الغائبة، الذاهلة الشاردة عن كل قوانين القرية الجائرة.. ومن تكون تلك القابعة في فناء داركم فوق

أكوام التبن.. تقدمي نحوها قليلاً.. راحت الخطوات تتسارع نحو ذلك الكائن المنسي، لم تسمع أنفاسها القوية كالمعتاد أو شخيرها.. ما بها تدس الليلة أنفاسها تحت أكوام التبن؟ ألكي لا يسمعها مغيبوها عن الحياة؟.

عودي أيتها الطفلة، عودي فقد يطلبك أحدهم، أو لست جارية الجميع..؟ وإن لم يجدوك انهالت عليك عصيهم، وأنت القلب الوحيد الذي يقدم لها لقمة أو يضيء شمعة أو يمسخ دمعة.. راحت القدمان الصغيرتان تقفزان بخفة وتتسللان بين الأعشاب.. والجسم الخفيف النحيل يطير كالفراشة اللاهثة خلف شمعتها «إني قادمة إليك أماء.. سأتيك يا من لا أعرف من أنت، يا من حجر علي قانون البشر ألا أناجيك أو أناديك.. وداعاً أيها الليل الحزين كحالي وحالها، وداعاً أيها السر الدفين لعقلي وعقلها.. لا بد أن أشعل شمعة لمن أسموها مجنونة الريف.. وهي الآن تبحث كعادتها عن نفسها وعقلها في خضم ذلك الريف.

تسللت إلى الفناء، حيث تقبع الشاة والخراف، وحيث تنام في إحدى زواياه تلك المرأة العدم، ذلك الكائن الذي لا تعرف كيف تسميه، فكل اسم جرح عميق في الفؤاد.. كيف أسميك، كيف أناديك؟.. مجنونة الريف أم مجنونة الحي؟.. أفي إشرافة عينيك بريق الجنون؟.. أفي أناتك الحرى سمات الجنون؟.. أم في عريك وجوعك تتجلى علامات الجنون؟.

أشعلت لأمها الشمعة التي أخذتها خفية عن أهل السمر، فوجدتها تشن وحببيبات العرق تتقاطر من جبينها وذقنها، والصفرة تعلق ذلك



الوجه الشاحب، كانت مجنونة الريف تضغط على أسنانها، فكأنها تكتم
بركان أنين والعرق يتصبب منها بغزارة كأنها تعيش ساعة المخاض
العسير.. ألا تنامين ساعة؟.. ألم يرقك الفراش هذه الليلة؟.. دعي
الشاة وخرافها تنام، لا توقظيها بدورانك حولها.. تعالي أماء! سأجعل
فراشك وثيراً.. أماء، ألا تسمعين.. دعي الركائز والأعمدة، لماذا
تتشبثين بها.. لماذا تتعلقين بها هكذا؟.. إذا كنت قد فقدت القدرة على
المسير فانكئي علي أوصلك إلى السرير الوثير.. الوجه أصفر شاحب..
والصوت حزين مبجوح شجي، كانت تنن أنيناً نزلت له دموع الطفلة
المتحدية للدموع، وارتجفت له فرائصها المتحدية للخوف.. وكان العرق
البارد يغسل وجهها ويبلل سائر جسمها، فالتصق به ملابسها المهترئة،
والطفلة تمسح أوديته، وتحاول مساعدة أمها؛ لتعود إلى مكانها، لكنها
كانت تمسك الركيزة بقوة غريبة لم تفهم الطفلة سرها...

وأخيراً تراخت يدها.. وسقطت إلى الأرض وحببيات العرق البارد تملأ
وجهها في شبه غيبوبة، وإذا بصرخة حياة تملأ مسامع الطفلة، صرخة
طفل جديد يطالب بحقه في الحياة، ملأ الذهول وجه الطفلة المرأة.. لم
تكن تعرف غير البكاء، كانت أحلامها الباردة تحترق.. وكيانها يرتعش،
شعرت بقوة خفية تخرس لسانها عن الاستجداء بأهل القرية.

وفي غير شعور منها حملت ذلك الدلو المعلق في ركن المجنونة،
وسكبته بقوة على وجهها، فإذا بها تستفيق من غيبوبتها، وتجلس
وبأظافرها المتسخة قطعت سرتة.. وغطته بكفيها الملوثتين: «أماء..
أماء.. أماء.. أهو مولود جديد؟.. أهو مجنون جديد.. مادام ابن
المجنونة؟.. أرني أخي أقبلة يا أمي».

كان نائماً فوق الثرى جثة هامدة، باردة كالجليد.. مولود قدر له أن
يصرخ صرخة واحدة ثم يمضي تاركاً ألغازاً عظيمة في ذهن أخته.. خرج
من هناك ليقول لأولئك الشداد الغلاظ بصرخة واحدة: إنما الجنون
ما اخترعتموه بزيفكم وظلمكم.. إنما الجنون ما أوحى لكم به أنفسكم
المريضة، ونزواتكم الترايبية المنحطة.. إنما الجنون أن أجيء ظلماً
وعدواناً.. واغتصاباً للإرادة، وتطاولاً على موثيق السماء الغليظة..

هي صاحبة وأنتم المجانين.. بعد أن أرغمتوها على تغييب عقلها،
وعلى البحث عنه في خضم جنونكم العظيم.

أمي.. لم هو بارد هكذا؟ أريد أن أضمه إلى صدري.. أن أقبله..
الألا يتحرك.. أهوميت؟! أماه لم تركته يذهب في دقائق معدودات..
وأنا في أمس الحاجة إليه.. لماذا يا أمي.. لماذا؟ نظرت إلى ابنتها..
هو أخوك.. ولكن أباه.. ودست عينيها في التراب؛ حياء من الطفلة التي
لم تفهم شيئاً، ولن تحلم.. ولن يسمح لها القانون البشري بعد اليوم
أحلاماً كباراً..

نهضت المجنونة من مكانها مثقلة، وراحت تحفر بأظافرها حفرة؛
لتواري فيها خطيئة هذه القرية الظالم أهلها.. ولكن ربحاً صرصراً
عاتية هبت فجأة، أطفأت شمعة الطفلة الذاهلة.. وراحت تذرو التراب
والتبن في وجهها.. وتواري جثة المولود البريء.. كانت تعصف في
جنون، تزار في غيظ رهيب.. تلتهم كل ما يقع أمامها.. اقتلعت الأشجار،
عرت البيوت من أسقفها؛ لتكشف للناس خطاياهم العظيمة.. لتكشف
للظالمين جنونهم.. نهض الجميع مذعورين مهرولين إلى العراء..
قالوا: أنى هذا؟ قل: هو من عند أنفسكم..!



تائهة في محطات الدنى

أعطني الكيس الكبير، فعلل النوم يا أمى؁ يغلب منك الجفون؁ وتنامىن...؁ ربما كان ثقىلاً.. وىضىع الكىس يا أمى؁ وتضىعىن... هى أىدى السوء - يا أمى - على كل الدروب؁ تسرق الحق جهازاً بأسالىب الذئاب الوادعة.

أعطني الكىس الكبىر؛ لأخفىه بعىداً؁ بىن أغوار الفؤاد؁ فلعل الرىح يا أمى؁ تهب من صفىر القاطرة؁ ومن الأىدى الظماء؁ ولعل العمرىا أمى ىضىع؁ ضىاع المحفضة.. ولعل الناس قد شموا عبىر الكىس يا أمى؁ فجاؤوا لاهتىن.. عجلوا الخطوسراعاً خلف تلك الرائحة؁ وجروا خلف فراسات الأنوف الجائعة.

هم ىفطون المكان؁ انظرى ذاك البرىق؁ انظرى ذاك اللهىب فى العىون الجائعة؁ انظرى ذاك الحرىق ىجرح الأحداق. ربما ذابت خلاىاه؁ ومدت ظفرها نحو ذاك الكىس؁ هو عمر من جهاد؁ أتضحىن به؁ أتمدىن خباىاه هداىا للجىاع. أعطني الكىس الكبىر؁ فزمان النهب

لا يوجد عذراً للشيخ، وزمان النهب لا يصنع عذراً للنيام البلهاء من أمثالك يا أمي، وأمثال أبي. أعطني الكيس الكبير، ففعل النظرات الوقحات تعلم أنك حبلى بألف من وريقات الذهب، تعرف في عينيك الذابلتين الخائفتين أنك حبلى بأوراق الحياة.

مدت الكف الهزيل نحو ذاك الكيس، أخرجت كنز الشباب بأيادٍ راجفة، هي أيدي الشيب والعمر الطويل، وذخر الجد والكد المرير.

أو تدرين أنني ما رأيت أظهر منك قديماً، أو تدرين أنني ما عرفت مثلك في الطهر، ما وجدت صنوك في هذا الصفويا أمي، على مر سني، ما رأيت مثلك في الحشمة أو ثوب الوقار.. فتعالى أَدفع اليوم لزاماً ثمن ذاك الحياء، وتعالى نشرب اليوم رحيق الطهر فيك يا أمي، وأدفع من جيبي ثمن ذاك الصفاء.. أو ليكن من جيبيك يا أمي، ومن جيبي فخر واعتزاز وكلام، إذ وضعت الجود منك، فأعطيت الثناء، وجف الجيب من كل عطاء.

هذه الحلوى، شكلوها، جعلوها منحة لاتصلح إلا للشيخ العاجزين، جريبيها، ربما لم تطعميها منذ أن كنت صبية. اشربي الشاي فقد لا تشربينه بعد ساعات قصار، اشربي كأساً وكأساً من رحيق الكيس!.

قد تجوعين، ولا تلقين قوتاً بعد ساعات قليلة، وأنا أعرف أن الدمع فيك مثل أنهار الشتاء، اهدئي الآن ونامي، ريثما يأتي دوي القاطرة، عندها أوقظك في همس ورفق، عندها يوقظك الصفير وصوت الراحلين، وصوت اللاهثين خلف الكنز والعمر وأطياف البريق.

أبصرت في نومها حلماً، أبصرت في حلمها كابوساً ثقيلاً يطرزُه السواد. رأت الشيطان في ثوب البشر يلبس بذلة زرقاء، زرقاة البحر،



ولباساً تحتها أسود، ورأت سمرة العذبة والقذبة الجميل، ورأته يطعن قلبها المرهق، المنقل بأصناف الهموم، يرميه بسهام من ذهب، ونسيمات ابتسام عذب ذراها على جرح الفؤاد. فبكت ضحكاً، غرقت في بحر الدموع الباسمات الضاحكات. ذا الذي فرش لها الأرض بأنواع العذاب ونفاق الكلمات المفرغات من كل حين. بينما مدت يديها لتقلع السهم الرشيق، أو تخبئه، أو تزيد السهم غوراً وكتماً للعذاب وجحوداً بالفؤاد.. ملاً الدنيا صفير ونداء، يوقظ النوم الغفل؛ كي يبدأ الرحيل!! نهضت ذعراً ورؤياها المخيفة تملأ كل مكان، ما رأت في عمرها المثقل شيطاناً!! واليوم تراه.. أي نحس، أي كابوس ثقيل هز قلب الأم، فارتجفت يداها؟

تاهت العينان منها في فلول الذهبين، القادمين، الراكضين الصاعدين، النازلين الساحبين، الحاملين أكياس المتاع. ومتاع العمر منها بين أحضان فتاها. وفتاها الآن ضاع.

ذعر الخطولديها في زحام الناس. صاعد يدفع ساقها الضعيفتين للأمام، ونزول يحبسون الخطوات الهزل من منها، كي يرجعوها، فتعود حيث كانت، ربما أخرجها الحشد إلى باب الزمان، ربما تقذف الساعة بالابن الشقي، فصفير القطر ينبى بالرحيل.

لاحت العين بعيداً في زحام اللاهثين.. رنت العينان.. ربما تلقاه أو تلقى دليلاً قبل أن يمشي القطار. يا بني، رأيت عندما كنا جلوساً ذلك الشاب الذي كان أمامك، ذلك الباسم الثغر البهي «أرأيت» هو ابني.. أرأيت.. زاحم الجارين بالمناكب، لم يعر أي اهتمام لصدى صوتها المبحوح من جرح الفجيعة.

يتلاشى صوتها الباكي وتذوي الأحرف. ليس في الميدان غير
هءاءات سكوت.. أرأيت.. به.. به.. به.. قد تلاشت بأعماق الضجيج..
وتلوت ساقها المتعبة في موج الزحام. أمسكت كف الفتى الجاري إلى
باب القطار.. يا ولدي، هو في قدك، هو في عمرك، كان قبل الحلم،
قبل النوم جنبي، أرأيت.. سحب الكف بعنف وامتطى القطر، وناداه:
أجلى الرحلة يا أمي، وعودي، فليالي البحث طوفان مخاطر، وتلاشت
كلماته في صوت القطار.

ما بقي في الناس إلا سكن في الركن منذ الأزل، هو مجنون تسمر
في أرض جنونه، وأبى أن يرحل عنها، إذ بها ذكرى جراحه، وعذاب
العقل قبل أن يخفى ويشفى بغيابه.

سألته عن فتاها الفارس الحلو المدلل.. تتمم بحكمة العمر الشقي؛
خشية أن تقرأ في عينيه سر السكن الدائم في أرض الذي غاب من
غير إياب؛ خشية أن تنوي المبيت، حتى يأتيها أناسيها أو تنوي الإقامة.
ليس في الدنيا سواها، وسوى المجنون أو ذاك الصبي الذاهل العينين،
الباسط كفيه منذ ساعات المخاض..

صرخ القلب الشجي، هو أعمى ولكنه يشبه ابني عندما كان صبياً،
يا بني، أسمعت خطواته وحفيف البذلة الزرقاء من صنع الذي خلف
البحار، كان في صمتك، في بشرك عندما كان صبياً.. كان مثلك أسود
الشعر وسيماً، أسمعته، أرأيت؟

قلبها يبحث عن ابن الثلاثين ربيعاً، ناسياً كيس الثلاثين ربيعاً،
في زمان ربما كان قلبه في الكيس الربيع.. خرجت تجري، وذعر القلب



يلوي الخطوات، أرأيتم ولدًا في عمر الزهور، أملس الشعر بهي القدر
أسمر، فاتنًا يلبس بذلة زرقاء، زرقة البحر، وقميصًا تحتها أسود.

ويجف الصوت والريق من حلق العجوز، وتظل الخطوات العاثرات
في صراع للطريق، أرأيتم ولدي الذي حلم الجفن بيوم يصبح فيه
عريسًا، فشقت كفاي، كفانا.. حتى ملأت للعرس كيسًا.. وتلاشى الحلم
من حولي، وكان الخبر المشؤوم من حلم شقي مثل عمري.

صور أخذت تطفو على سطح خيال الأم.. تتلاطم.. تتداخل،
تتزاخم.. أخذت بعض مزاياها من خيال صورة الشيطان في ذلك
المنام، وبقايا الصورة للابن المضاع أو المضيع، خالطت سمرة هذا
سمرة ذلك، وتلاشت من أمام العين منها الزرقتان، وغدا الأسود لونًا
واحدًا، وغدا الطيفان شخصًا واحدًا.. ومضت تلك العجوز تبحث عن
ابنها حينًا.. وعن الشيطان آخر.. في محطات الوطن..



obeikandi.com



قلوب باردة

خبروها عن زمان الغابرين وهي طفلة، عن زمان القحط منذ أعوام طويلة، عن زمان شح فيه المطر، وضروع الأرض جفت والجياح للديار الخربات الجائعات هجروا.. رحلوا خلف سراب الحبة الصفراء، ومشوا خلف سراب القطرات النضرة.

خبروها عن زوال الغابرين.. منذ أحقاب السنين، عندما كانت بلاد الغرب تنهش أرض المسلمين.. خبروها أن في التاريخ أممات في قلبها حب أزلي، وتهاوت في حناياه مراييع الأمومة، وتلاشت عطفة الرحم المأمور بالرحمة واختلت رسومه، وحنان الكبد الحرى تغرب وهمومه.

خبروا ابنة عشرة الأعوام وعام عن جحيم ليس من عمر صباها، نبؤوها أن في التاريخ أممات من صرير الجوع أبكت طفلتيتها.

كلما حبكوا القصة في صدق شجي فاض بالدمع حشاها، وصارت الطفلة كلما حنت إلى دمع يبرد جرحها الدامي استجارت بالتاريخ، ولجأت إلى ذاكرة الزمن؛ لتروي قصة تبكي بكاءً مرّاً لبكائها.

نبؤوها لأن أعوامًا عجافًا حطت الرحل على أرض الوطن، بعد
نهب من فرنسا ونضوب للسماء، خرج الخلق على إثر صداها يلقطون
الرزق من عمر السراب، يأكلون القيظ يستفون التراب، خرجت خلف
الحيارى تمضع الجوع طعامًا وشرابًا، والبنت الجائعات يأكلن العذاب،
يتجرعن هموم اليتيم والنسيان والتهميش في أرض الخراب، ويجرجرن
الخطا خلف خطاها؛ حتى لا يضيع الركب عنهن، وإلا ضاع للأم طريق
النور واسودت سماها. غير أن الجوع والعري وأصناف المظالم هدت
السيقان عن السير، فغار الركب عن عين الحمائم، لم يعد غير السراب
والظما المحرق والجوع السحيق، وتراءت لليتامى صرخات الجوع أطباق
رحيق، وتلظت للحنايا شعلات من حريق. خضن في الدرب عميًا، بعد
أن ضاع الطريق، ومحت هبة ريح آثار الحداة.

تاهت الأم وابنتاها، وعفا الجوع على الفكر، فأبلى خبرة الماضي
بأنواع الدروب، خضن في الشوك وطوفان الحجارة، خضن في جوف
الصحارى.

نامت البنتان بعدما أعياهما الحر وتيه الدرب وخلو الراحتين،
نامت البنتان بحكاياها عن الخبز وأحلام الرغبة، غير أن الجوع فيها
لم يدع للجفن نومًا، قبعت كالظل تحت الظل تبكي لشقاها.. لحظة
حلم.. ساعة حلم سخي.. جاءها اليسر مع نار الظهيرة، بينما البنتان
في نوم عميق، لاح من عينيها أطيايف بريق.. رمقته بعيون ذاهلة،
أرغيف بعد أعوام وأيام عجاف.. أصدق؟.. أو يكفي جوعي المحموم
من صبر عقيم.



جرت الأم بشوق نحو تلك التلة الصفراء، مدت اليد المرتعشة المعرورقة الهزيلة، اختطفت الرغيف اليابس المغلف بطبقة من الرمل، وكأنها تخشى أن تسبقها إليه يد أخرى، فرحة لم يعرف القلب لها مثيلاً، نفضته من بقايا الرمل، ونسيت حق النيام في ذلك الرغيف، لملمته مثلما جرح يلملم، ومحت آثاره؛ حتى لا تراها الطفلتان.

حللت طفلة العشرة أعوام وعام قصة الأم وابنتها طويلاً.. قصة كانت عزاء ودواء، قصة كانت ملاذاً، كلما رأت الزيف تحكمت ارتمت بين ثناياها وأحضان الدموع.

وأخيراً وجدت عذراً لذلك القلب لما لفظ وحي الأمومة، هو طوفان من الجوع، هو طوفان من اليتيم، طوفان من الترملم وظلم الناس ونسيانهم، أنسى الأم يوماً قلبها. فكفاها أن محت الآثار عنها، وكفاها أن جلست خلف تلك التلة الصفراء وأخفت موت ذاك القبس الحر المنير، لم تر البننتان حقدًا، لم تر البننتان جوراً.

رحم الله زماناً كان للحق إذا ما مات في القلب ستاراً، رحم الله زماناً لم نر الزيف والعصيان والظلم جهاراً.

في زمان الزيف أشقت الطفلة ذاك العقل في البحث عن عذر لتلك الجامدة، قلبها مفرغ من الرحمة والحب، من عطف الأمومة، هو قلب من حجارة، ربما أقسى من الحجارة ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ ليس في العينين غير بحر من غضب، ليس في الكفين غير الصفعات، ليس في الثغر غير نفضات من جحيم وصخب.

جردت القلب مما قذف الرحمن فيه من محبة لفلذات الكبد، للذي
منها أتى.. قتلت في اليد منها الرحمة، قبرت في الثغر طهر المنطق..

قتلت طفلتها الصغرى، إذ رمتها بالحقيقة، قالت الطفلة في صوتها
الباكي الجريح: «أماه، إني أكرهك، إذ رضعت الكره منك وتعلمت
سجايك المريضة.. أكرهك، إذ رأيت الحقد فيك بركان حمم..
أكرهك..! رأيت أم أسماء وعمرو كيف تحنو، كيف تدعو.. كيف ترنو..
كيف تعتب، عتبها جنة فيحاء وحنوك نفس من جهنم.

صفعتها.. أردفت صفع اليدين بسهام النظرات الغاضبة.. بسيلول
الكلمات الجارفة.. ب.. ب.. جلست في الركن حيرى تتألم.. تتأمل.. لم
تجب بعدها صوتاً.

وأخيراً قتلت طفلتها.. ليس شنقاً، ليس خنقاً، ليس إعداماً على
جراتها، إنما قتل طويل ومرير.. إنما قتل مهول.. قتلها عبر أعوام
ببرد الصمت، برد المنع، برد الردع، برد الحجر والتهميش.. أطعمتها
كل أطباق المنون، قتلها قتلة باردة.. وأماتها سنين.. غيببت عقلها
الطفل؛ حتى لا يرى الظلم سنين.. رحلت عن عالم العقل إلى دنيا
الجنون.. هربت من عالم الزيف إلى دنيا اليقين.. رحلت عن ذلك
القبر المؤبد.. غادرت ذاك العذاب.

هم مجانيين، ولكن لهم العذر إذا جنوا.. لهم العذر إذا تركوا الدنيا
لأصناف الذئاب. لهم العذر إذا لهثوا ظمأى وراء أطياف السراب..
هم مجانيين ولكن عقلاء، يعرفون الحق والعدل، يعرفون الحب
والطهر، يعرفون الخير والرحمة.. هم مجانيين ولكن عقلاء. قصتان



كانتا السجن لبنت العشرة أعوام وعام، قصتان كانتا البلمس من كل
سقام.. فجأة أوحى لها عمرها المسفوح باليون البعيد بين القصتين..
أصبحت تجلس بين الحدثين.. حكماً يبحث عن أذار للجائيتين ربما
كان جواز سفر الأولى جفاف، ربما صرير الجوع بين أعوام عجاف..
ليس للأخرى معاذير غير ذلك الموت في غور الفؤاد.

خبروها عن زمان الغابرين بخطاياهم البريئة، ونسوا أن زمان اليوم
طوفان قلوب باردة.



obeikandi.com



بحيرة الأكدار

الأرض غارقة في أوحالها.. الحفر امتلأت ماءً وأكدارًا، والناس يمشون بحذر، يمشون على ذلك التمثال التائه، وهو يتأمل في تيه خطواتهم الرشيقية وحركاتهم اللطيفة؛ خشية الوقوع في الوحل.

كان يحيى يسير بلا مبالاة فوق بساط من الوحل، تفرق رجلاه مرة في بركة من الأكدار، كما يفرق عقله هناك في برك من الآلام والأكدار.. الطريق يمتد، والوحل يشتد، ويحيى يسير ويتأمل وجوه هؤلاء المقبلين المدبرين وقسماتهم التي ليست كقسماته، فقد كان ساهي الحجى.. مغبرة قسماته، وعيناه كانتا تحملان ألمًا قاتمًا، يغلفهما السواد ويتمرد عليه بصيص من الأمل الباهت، يكاد يختنق فيهما تحت سواد الحزن المطبق. يقتلع الرجل تلو الأخرى، ويمضي في تحديه المرير للمجهول، وكلما وقعت قدماه المتعبتان في بركة امتدت اليدان الحائرتان، الباحثتان عن عمل؛ لتنفض ما تثبت بالساقين من أكدار..

العذاب يغزو الفؤاد والحيرة، يصارعهما الأمل العليل، ويحيى
يسير، وبرغم البرد يتصعب العرق من جبينه الغاضب النادم، فتمتد
اليد إلى الجبين المكفهر؛ لتمسح ما تراكم فوقه من قطرات عرق، لم
يكن ليفكر فيها أمام هذا الطريق المملوء حفرًا وأكدارًا وطينًا:

- لماذا لا ترمم تلك الطرق الجريحة، لماذا لا تملأ الحفر الفاتحة
الأفواه بالأكدار البشرية.. لا الطين..؟!

ومر يحيى الطيف الذي عوده التحية والسلام، فعطف عليه كعادته
بتلك النظرة الشزرة التي أطعمه سمها أيامًا، ذلك الطيف الذي انتظر
يحيى منه الدواء وعلق عليه الأمل الكبير، أخذ يعبث بأسئلته الممزقة
ويطرب أذنيه بقذائف من نار، ولم تعد التحية الرقيقة الطيبة إلا
حلمًا باهتًا كباقي أحلام يحيى المتبخرة أو النائمة إلى أجل مسمى
وغير مسمى، ملأت الندامة قلبه للمرة الألف، وعذبت الفؤاد الذي
وعد النفس بترك هذا الطريق الذي يلقي فيه من كان بالأمس صديقًا
صيرته الليالي معذبًا:

- نظراتك أخي تعذبني.. تمزقتي، كلما أتيتك تذكرت الماضي
والحاضر والمستقبل، وتذكرت المفاهيم حين تختلط ويصبح الكل
ضياغًا، ارحم فؤادي من سهام لحظك القاتلة يا أخي.. جنبني فقط
نظراتك البركان، نظراتك السهم الصقيل.. نظراتك العتاب المر بعد
أن فات الأوان..!

لماذا ألقى طيفك صباح مساء، أكتب علي الشقاء؟ لأنه صار
مهندسًا! بل ألقاه لأنني أصبحت جوال طرق.. لأنني دخلت بحر الأكدار



مرة فخرجت ملوث الثوب، مكلوم الجوى. ألا تطهر هذه الأردن.. ألا يغسل ما علق بي من الأكدار؟! إذا لم تعني أنت -يا من كنت صديقاً- على غسل ثوبي وعقلي وقلبي فمن؟ أم تريدني مهندساً؛ لأنك مهندس، أو أب يريدني كاتباً؛ لأن قريبه أو ابن قريبه كاتب، وأخ يريدني معلماً لأن شقيق صديقه معلم..؟ لكن لا تخف، سأطهر ثوبي وقلبي لا محالة، سوف أرحل عن طريقك.. لن ألقاك بعد الآن، لن أتجرع سم نظراتك القاسية، سأختار طريقاً جديداً يوقظ أحلامي من سباتها العميق ويحييها من موتها الأبدي..».

قد يبحث عن طريق جديد، وقد يجد طريقاً، ولكن أيخلو الطريق من المارة؟.. إنه يريد طريقاً يسير فيه وحده؛ حتى لا يرى القسمات المؤنبة الغاضبة، طريقاً تملؤه البرك والأكدار والحجارة، ليجلس عند إحدى بركة الراكدة؛ ليرى فوق سطحها قسمات وجهه، وقد امتزجت بما في الأعماق من بقايا، ويسأل نفسه:

متى ستشرق هذه القسمات..؟ لن تشرق حتى تبلغ قمة السواد..!

لقد دلته خبرة نصف عام من التجوال أنها لن تشرق ما دامت الطرقات الهادئة النائمة لا تخلو صباح مساء ممن يصوبون سهام لحظهم القاتلة وقذائف أفواههم المحرقة إلى فؤاده المتعب..

- حتى هؤلاء الذين لم يتمرغوا في الأوحال حالكة قسماتهم.. لماذا القسمات المكفهرة؟ أوجد بينكم مثلي تبخر في بركة الأكدار ثم خرج منها، مبلل الثوب، مجروح الساق والقلب، لماذا لا تنتظرون إلى جرح الأعماق، فالثوب وجرح الساق اندمل.. أما القلب فلا تعلمون

ما به؛ لأنكم -أيها السادة- تجهلون عمق البركة التي هويت فيها أنا وأمثالي.. ولكنكم وأنتم معذورون، فأنا لم أكن أعرف مدى عمق جرح من هوى قبل سقوطي، وهأنذا الآن.. والآن فقط تحت سهام لُحظكم الجارحة أدركت مدى العمق ومدى الجرح..».

تذكر يحيى طريقاً خلف المدينة الصغيرة لا يؤدي إلى أي مكان عدا المقبرة النائمة، طريقاً يؤدي إلى النهاية، نهاية الحياة.. غمرته نشوة من فرح.. اهتز الفؤاد ورقصت النفس المثقلة بالعذاب عندما تذكر هذا الطريق الهادئ، المتعمم بوحده وهدوئه، وإن كان صفوه مهدداً بين الحين والحين بمن يقتلون صمته العظيم.. تمنى لو كان مثله هادئاً صامتاً، تمنى لو يقبله رفيقاً بعدما صد الأوبة عنه ولفظوه.

راح يمشي، تقوده خطواته إليه بخفة، والفرح يغمر النفس والإشراقة الضئيلة تصارع مسحة الألم والسواد الغامضة.. لأول مرة منذ شهور عديدة يشعر بالسعادة، فقد أصبحت لديه غاية يسعى إليها، وربما عمل!.. عجل في السير؛ ليراه ويرى ما يمتد حوله من أشجار اللوز التي تسلقها يوم كان العمر ربيعاً.

كان يحيى يمشي بخطى عريضة واسعة، غير عابئ بقطع الطين التي كانت تتطاير من حذائه القديم المتآكل فتلتصق مرة بالساق ومرة بالظهر، وتعود لتنام مرة أخرى حيث كانت، العينان تحلمان بالسكينة، تبحثان عن قمم الأشجار العالية، الساكنة بين أحضان المقبرة وأشجار اللوز الممتدة حولها، أو السدر الممتد عبر الطريق الوحيد الهادئ، ولا شيء يطل، غطت البناءات بتطاولها الزائف كل شيء.



هبّت الريح وراحت تعبث بطاقة يحيى، فتتقلص خطواته، ولكنه ظل يقاوم ويدفع النفس ببطء وعناء، لا همّ له سوى الوصول؛ ليرى أرضاً نامت فيها بعض ذكرياته.. يوم كان الرفاق يتكفلون لحفظ الدروس وتبادل الحكايا.. كان يحيى ينفرد في هذا المكان النائم، المطبق على أحلامه وآلامه؛ ليجلس تحت شجرة اللوز.. ليسأل هذه الشجرة التي قد تدب الشيخوخة في عروقها عن حقيقة:

أكسول حقاً أنا؟ أماجن حقاً أنا؟!

ملأت عليه الأسئلة الحزينة الطريق وراح الذهن المتعب يحشد السؤال تلو السؤال؛ عسى شجرة اللوز أو الصخرة القابعة تحتها تجيبانه، فلا أحد يعرفه أكثر منهما.. لكن قد يعرفه بحر الأقدار أكثر منهما..!

كم آنس وحدتهما صيفاً وربيعاً.. وشتاءً وخريفاً غير مبالٍ ببرد الشتاء ولظى الصيف.. اقترب من رفيقي الطفولة؛ علهما يؤنسانه وينسيانه، علهما يقتلان وحدته وغربته كما قتل وحدتهما وغربتهما في زمن مضى.

الأسئلة تدور في الذهن المتعب ويحيى يسير.. يكاد يجري، يدفعه الشوق والحنين إلى رفيق عافه الناس وخافوه! وهل يصادقون المقابر والأماكن القفر الخاوية؟! إنهم لا يؤمنون إلا نوادي الضجيج والسخط، وتأبى نفوسهم عظمة الصمت وفلسفته. أما يحيى فقد أدرك معنى صمت ذلك المكان.. وحديثه الصامت الموحى.. وصمت الكتاب وهمسه الهادئ فصادقهما، لكن لم يعد يقوى على قراءة سطر.. أما

صمت المقابر، فما زال يملأ نفسه بالطمأنينة والوقار.. ويستحثه على قراءة سطورهِ.

بينما يحيى يلم بالوصول لاحت له شجرة اللوز المتعالية، وبدأت أشجار السرو تعانق عينيه.. مدّ البصر إلى الطريق بعد أن متعه برؤوس الأشجار المتعالية، كان صفحة عارية، لا شيء فيه غير الحجارة والبرك الراكدة، أين السدر الذي كان يزين الطريق، ويضفي على المقبرة هالة من الوقار والهدوء؟! ربما خافوا أن تعلق أشواكه بموتاهم.. ولماذا تركوا البرك، وقد يهوي فيها أحدهم..؟! أسئلة وأسئلة تزام النفس المتعبة، الباحثة عن الطمأنينة التي طالما طلبتها، منذ أن حط يحيى الرحال هنا، منذ أن لفظته أرض العذاب من أكارها كما تلفظ الفضلات، وهو يبحث.. قاداته قدماه المتعبتان إلى شجرة اللوز، فارتمى تحتها.. وتداعت ذكرياته.. كم عزف لهذه الشجرة من ألحانه العذبة! كم ضحك تحتها بنغمات نايه! وبكى أيضاً تحتها بألحان نايه المعذب، الذي لا يسمح له القانون بالنوم بين أحضان البيت، بينما تنام في أمن البيوت الأفاعي والعقارب، وتتراكم فيها الرزايا والدنايا والخطايا ولا أحد يراها..

يوم كان في ماضيه القريب أو البعيد كان يقرأ تحت ظل هذه الشجرة، وإذا ما غزاه الممل جري إلى حيث ينام الناي خلف ثرى أحد القبور الدارسة.. ليعزف لنفسه ولكل من حوله من كائنات ألحاناً تنسكب عبرها مشاعره الغامضة، ثم يتركه لينام، ويعود أدراجه إلى البيت. أو مازال الناي في مكانه؟! لا يهم؛ لأن يحيى في غير حاجة إليه، لكنه الآن بحاجة إلى صمت أكبر وهدوء، ربما يعزف غداً أو بعد غد



عندما يعلن الطريق والمقبرة قبولهما لهذا الشبح الذي جاء لينافسهما في صمتهما العجيب الرهيب.. العبقري..

جلس يحيى على الصخرة المبللة، وراح يتأمل الأوراق الخضراء، وقد غطت الأغصان والأزهار البيضاء، وهي تضحك للوجود. في مثل هذا الوقت، يوم كانت الأقدار تقوده إلى هذا المكان يجد الشجرة قد أنجبت حباً، عجباً، شهر من الربيع يمضي، أكثر من شهر ولم تنجب.. كانت قبل أربع سنوات تزهو في الشتاء، وتتحدى بردها؛ لتنجب الحب ربيعاً.. أربعة أعوام من العمر المتناقل كفيضة بتغيير كل شيء.. تتغير فيها حياة الإنسان.. حتى شجرة اللوز غيرت عاداتها، الطريق تبدل.. إنها الأيام التي تأتي على كل شيء..

سرت إليه البرودة القاسية.. بلغت حتى الوريد، وهو جالس يسأل الشجرة.. ينتظر بوحها بالسر الدفين الذي عرفته، بالحق المبين الذي عهدته من هذا الرجل أو الطفل.. فكانت هبات الريح الخفيفة تدغدغ الأغصان فتتهامس الأوراق والأزهار، تتناجى بالجواب وينتشي يحيى طرباً؛ لأنه يفهم لغة الصمت والهمس ولغة النجوى، هكذا كانت ترقص الأنغام نايه. وها هي الآن ومهما تأخر الإنجاب، وحتى إن لم تنجب تشاركه صمته ووحدته، وتبوح له بحقائق تناستها قلوب الأحبة.

استرخى يحيى.. غرق في تأملاته عن عمر الشجرة الطويل.. شاخت ولم تعد تنجب لوزاً، هذه هي الحقيقة.. وأهمها العقم.. قد تنجب في أواخر الفصل حيات، ثم تبنى ولا تبقى سوى ذكريات اللوز المر.. ليبتها تنجب حتى الحجارة..

تمنيات غريبة.. سبح إثرها يحيى في بحر هادئ من الأحلام
الغريبة الغامضة والأمانى الباهتة.. تمنى لو يكون حفار قبور.. أو زارع
حقول.. أن تتحرك يداه، أن تفعل أي شيء، ولتبحر النفس حيث شاءت،
ولتسبح العينان حيث شاءتا.

حركات خفيفة سريعة لم تشأ قطع تيار أحلامه، خطوات خفيفة
لا يكاد يسمع وقعها، بل لتكن قوية، عنيفة، لتكن إعصاراً، قنبلة.. فلن
تخرج يحيى من عالمه السعيد الذي اكتشفه لتوه بعد عذاب التجوال
المرير والعيون المؤنبة، لن تطفئ إشراقه عينيه هموم الزمان، ولن
يقتل جنين الفرحة الذي أنجبه القلب أي شيء.. تلاشت تحية طيبة
طاهرة في الفضاء ويحيى مازال شاخصاً.. ومر الطيف قرب به بحركاته
الخفيفة السريعة.. وفجأة توقف أحمد.. من هذا الذي لا يرد السلام؟!
قد يكون مريضاً.. قد يكون غريباً.. قد يكون..!! استدار أحمد.. اقترب
من ذلك الجسم النائم تحت الشجرة بلا روح.. انفرجت شفثاه، أنجبتا
نغمة عذبة « يحيى..» لم يكن أحمد يصدق عينيه.. استنقاق يحيى من
غيوبته أو حلمه أو هروبه!! وراح يبادل صديقه.. أعز صديق التحيات
والقبلات، وأحمد يتأمل القسمات المشرقة والهزال الشديد والعينين
الذابلتين الحالمتين.. لقد عهد فيهما النظرة البركان فكيف بهما
تفقدان تحديهما.. وكانت عيناه تجيبان على كل سؤال طرحه أو يطرحه
أحمد.. عندما يصبح تحدي العيون وإشراقها فشلاً يصبح الفرق في
بحار الأقدار هو المصير.. هو النهاية..!

غرق يحيى في بحار أقدار أوروبا بذكائه الوقاد وبصيرته النفاذة،
ولكنهم أغرقوه في بحر أحوالها وأقدارها.. هوته صخرة فيها فهوى..



هكذا طرقهم مملوءة بالأكدار وبالنساء وبالحجارة.. ظنه أحمد قد عاد مهندساً.. وهل تركت له مدنية الأكدار شيئاً.. أخذت كل شيء، لم يعد غير طيف، وربما جثة تحب أن تحيا مع الموتى إلى أن تسترد روحها.. باح لصديقه القديم بكل ما علق به من أكدار وأدران، إلا أن أحمد ظل متفائلاً.. مهما لفظته المدنية ومهما امتصت ذكاءه ورمته بالطيش والحمق وسفهت حلمه وحلم أبناء جلدته فلن يعود صفر اليدين: كلُّ إلا يحيى..!! ولكنه فوجئ لما أطلعه يحيى على الحقيقة.. اعتراه الذهول لما وجد يحيى الذكاء المتوقع.. ويحيى الإشرقة الوضاعة جوال طرقات.. كلمات أدمت فؤاد يحيى.. ذكرته بماضي التفوق والألمعية.. ولكنه الغرب مسفه أحلامنا.. قتال أخلاقنا.. مدمر أمانينا.. إنني أرفض أن يمنحني الغرب وسام المهندس الذي لم يعلموه إلا الفشل.. مزارع، فلاح.. حضار قبور أظهر من مهندس أعطاه الغرب شهادة، علموه قبول كل شيء حتى الموت البطيء!! اعذرني أخي.. فقد قبلت أشياء لم أكن أظنها من سموم الغرب.. أطعمنيها حب امرأة زائف.. امرأة اصطدمت بها في بركة الأوحال.. ولكنها كانت تقول لي دائماً:

إن كل شيء عندهم، حتى الحجارة ضدنا..

كم أتمنى أن أكون فلاحاً.. أن أكون حضار قبور.. ليرى الأهل الذين علقوا علي آمالهم الطويلة أن يدي حين أعود في المساء تشهدان على العمل.. ليتني لم أعد إليهم جوال طرق كما ترى..!!

امتزجت آلامه بفرحته الأولى منذ أن وطئت أقدامه أرض الوطن.. إنها أول مرة يجد فيها من يستمع إليه، لا تهتم مشاركته.. المهم أنه

لم يسخر منه.. لم يكفه عن نبش بعض آلامه الدفينة؛ عليها تشفى..
تواعدا على اللقاء كل مساء.

مضى يحيى تحركه الفرحة.. تقوده. مضى وكأنه ولد من جديد..
وعادت إليه نظرة الحب إلى هذه الأرض الغالية، هذه الأرض التي
ترأت له في الأشهر الأربعة الماضية مقبرة لجراحاته العميقة، ونفسه
المهدمة..

راح يمشي بخطى هادئة ورزينة، ونفس مشرقة، وقسمات مضيئة
تتحدى الوحل والطين والكدر.. تتحدى الغرب.. تتحدى العالم أجمع،
تخنق القتامة والسواد، تنجب من أعماق بحيرة الأكدار النور المبدد
للظلام البشري..

نام نومة هادئة مريحة ليصحو على حشرجات تخنق صدره الذي
لم يعرف الراحة منذ زمن بعيد..

أحست والدته أنه يطلب شيئاً، جاءته بقدر الماء.. لم يكن يقوى
على النهوض، كانت الأنفاس تملو وتهبط، والصدر منقبض، حشرجات
متتالية، تكاد لا تخرج الأنفاس من حلقة المنهك المبجوح.. راحت الأم
في ذعر تناوله قدح الماء، تذكره بالشهادة..

شهقات أعقبتها حشرجات متقطعة.. تخللتها الشهادة، لفظ
أنفاسه الأخيرة.. أقبل أهل القرية في حذر يقدمون تعازيهم للوالدين
ويتساءلون في ذهول عن السبب؟! لا أحد يملك جواباً غير أحمد
الذي كان يعرف أن الغرب لا يرحم.. فكان يجيب في صمت العيون
المستفسرة.. إنه المرض الخبيث عافاكم الله.. إنه السيد «الإيدز».



مناجاة تحت جناح الليل

ما تبقى من عمر النهار يتهاوى تحت أشعة الغروب الذابلة، احمرار فاصفرار كهذه الوجوه الذابلة الظمأى إلى بسمة بريئة صادقة، لا إلى مثل تلك الموسيقى الصاخبة من الضحكات المتموجة.

الوجوه شاحبة، والعيون شاخصة، والذهول ينتاب الجميع، وهم يتحدون الإعياء المفرط، فيزدادون سعادة بهذا التجمع الأخوي، وينسون أتعاب النهار. راود الكل شعور غريب، كل واحد تقول له نفسه الحساسة إلى أقصى حد: إن شيئاً ما سيقتم هدوءه، ويكتسح جوانحه ليبحر في سفينة سعادته إلى النهاية، ويحرك ما بأعماق ذلك البحر الهادئ الساكن من الرواسب، لتطفو إلى السطح، وتلوث كل ما ارتسم على الوجوه البريئة..

ويكتم كل واحد حدسه الذي تعود السير على إيحائه، وأنه لو حدث مثل هذا أو شبهه فقد يذهب كل واحد منهم باذلاً قصارى جهده لإخفاء عذابه الذي تبوح به قسماته، ونظراته الحائرة، وبسمته القديمة،

وشحوبه المتغير. نشؤوا يفهمون جيداً هذه اللغة الصامته ويشعرون بها، ومادامت أرواحهم جنوداً مجندة تقرأ القسمات.. ما من متألم إلا أسعفوه برغم عجزه عن الأنين، ولماذا يئن مادام صوت نفسه متصلاً بنفوسهم جميعاً؟!

إن شر ما تخشاه هذه الأسرة المتألفة التصنع والزيغ، لقد تعودت الصراحة، وتعودت الوفاء، وتعودت التحدي إلى النهاية.. فهل تستطيع التحدي إلى آخر لحظة؟

جلست الأم التي بين الكهولة والشيخوخة على بساط الأرض الجرداء؛ لتتال قسطها من الراحة بعد أن أعيتها ماكينة الخياطة الآلية التي ظلت معظم النهار واقفة أمامها، حتى الكرسي تكسر.. حملت يمينها قطعة من بقايا القماش المرمية، وجففت بها قطرات العرق المتصببة، وراحت تقضي على السكينة بتنهات عميقة.. متقطعة..

ما هي إلا لحظات حتى دخل الابن يئن أنيناً لا يسمعه إلا الله، إنما الذي يراه من أفراد هذه الأسرة يشعر به، ويسمع أنينه. حيا والدته تحية طيبة، وارتدى بجانبها على البساط المحبوب.. الثرى. كان يقطر إعياء وعرقاً من شدة الحر وطول العمل.. وعاد الأبناء الصغار يلهثون من شدة الظمأ وامتداد الطريق.. عادوا من المدرسة النائية يحملون البشرى.. بشرى الانتصار والنجاح غير مبالين بشحوبهم وذبولهم غير المعتاد، المهم أنهم صارعوا وتحدوا، وها هم أولاء الآن يخرجون من صراعهم ذلك، وقد توجت رؤوسهم المتعبة بالنصر، جنوا ثمرة عملهم وكانوا الأوائل.. كل أملهم أن يروا بسمة تهنئة من الجميع، وكان لهم



ما أرادوا.. ابتسمت الوالدة والأخ الأكبر مهئينين ثلاثتهم بالفوز.. وراحوا يتسابقون إلى برادة الماء لما اشتد بهم الظمأ.. حملها أصغرهم بلهفة، وراح يشرب منها دون توقف والأم تزجره من هناك، وتأمره أن يشرب على مهل وثبات فهو متعب.. شرب حتى الارتواء، بل حتى الثمالة في حين كان أخواه ينتظرانه بفارغ الصبر، بل كانا يلحان عليه بالسرعة.

جلسوا جميعاً تحت ظل ضئيل منحتهم تلك الشجيرات الصغيرة التي سقيت من عرق الجميع، ما من يد إلا قدمت لها جرعة ماء.. فمدت أعناقها اللينة الملتوية تحاول التناول نحو السماء، وبرغم الظمأ امتدت ومنحت الجميع ظلاً.. لكنهم الآن في مثل هذا الوقت لم يعودوا بحاجة إلى ظل، فالشمس تتأهب لتوديع الكون لتلقاه غداً وقد ازدادت حرارة!! ذبل نورها الذي ظل اليوم كله يلغح هذه الوجوه، ويلسع تلك الأجسام الصامدة برغم ذبولها بحرارة قاسية.. كانت هذه الأسرة الصغيرة بحاجة إلى نسيم خفيف أو حتى إلى عزف صاحب من الرياح يجفف عرقها المنسكب، ويمتص طاقتها الزائدة لتسلم كل واحد منهم إلى نوم عميق محارباً طيف الهواجس..

كان التعب بادياً عليهم.. الكل يتألم، وكل واحد يظن أن لا أحد يشعر به، فيتمنى لو يستطيع التأوه والبكاء.. أو يقول لهم بعبارة صريحة: إنني أتألم فهل تشعرون؟ ناسياً من تراكمات القانون العريق الذي سارت عليه هذه الأسرة البسيطة منذ نشأتها الأولى.. أنها لغة العيون، ولغة القسّمات والوجوه، والألم والبسّمات.. إنها لغة الأعماق.. لا بأس لسوف يشعر كل واحد بالسعادة؛ لأنه استطاع أن يتحدى الكثير الكثير من عذابه، ويكبت آلامه المبرحة، وتأوهات العميقة التي استطاع أن يخنقها، ولم

تصل حلقه بعد.. وحتى إن غلبته وحاولت الانفجار، فإنه يضغط عليها بين شفثيه وقواطعه؛ حتى لا يتقل كاهل الآخرين، وهو يعلم أنهم ليسوا بأفضل حلاً منهم، ويسبح في نفس الآخر، ويقرأ ما ارتسم على محياه. خيم عليهم الصمت زمناً طويلاً.. اتسعت فيه الجلسة للصمت المعبر، ولرب نظرة أو لحظة خير من ألف كلمة رقيقة شاعرة..

وبينما هم كذلك تراودهم المشاعر نفسها.. رأوا شبحاً مقبلاً من بعيد يحمل كيساً، أو ربما كان الكيس يحمله لشدة تشبثه به، رجلاه تلتويان لثقل ما تحملان.. نظرات خاطفة تبودلت بين هؤلاء الجلوس.. خفقات كتيار إنذار مفاجئ قذفت بها أرواحهم المرهفة جميعاً، كل منهم ينبئ الآخر بالخطر..

وأى خطر هذا الذي تبادلوا حوله النظرات.. قرأ الابن الأكبر أمراً ما في عيني والدته المشحونتين كآبة منذ الآن.. فنهض بروح نشطة ونفس متأججة حباً وطاعة، ونهض بجسم متناقل متعب يكاد يهوي على الأرض.. إلا أنه كبح جماحه، وأنبه بعد أن نال بعض قسطه من الراحة.. وراح يسعى جاهداً؛ ليخفف العبء عنه.. وصدق حدس الجميع وإحساسهم المرهف.. ما كادت عينه تصدق أن هذا الشبح أو هذا التمثال المتهاوي هو والده.. كان شحوبه أكبر، وصفرته أشد، وعباؤه أقوى.. كان الذبول يغزو إشرقة عينيه المعتادة.. إشرافة الفرح بالعودة.. بالتجمع، عيناه غارتا وهو يغمضهما ليكبت آلامه، لكنه كلما فتحهما باحتا لهم بما يعذب صدره من ألم، وكأنهما تصدران آهات عميقة، كما كان وجهه يتأوه.. شخصت أعينهم جميعاً.. جمدت على الشبح المتألم. كانت نظرة شاردة كسماء صحراء ممدودة، لا ساحل

لها وكأنها تتوغل في أعماقه؛ لتبحث عن موضع الألم. غير كافٍ، الكل يسأل أهو ألم المعدة؟.. الدماغ؟.. لا بل الكلى.. بل القلب!!.

لعلها ضربة شمس. وكان لكل سؤال من بحر الأسئلة المنساب عليه يومئ برأسه أن لا.. هل هذا ألم مرض محسوس؟.. كلا.. إنه ألم لا حدود له.. لا حدود لموضع الداء.. هو داء مزمن ولد معه ورافقه طيلة أعوام عمره الزاحفة نحو النهاية.. لقد كانت مساحة الجرح أكبر من حجم الجسم، ولو كان الألم نابغاً من عضو ما لأوماً لهم بذلك حتى تقدم له الأم أحد العقاقير الخاصة التي كان يحضرها بنفسه من قمم الجبال مثلما تعودت، فمرة تحضر شيحاً، وأخرى نعناعاً، أو فيجلاً، أو فاسوخاً، أو زعترًا.. أو.. أو!! كل كيس يحمل دواءً خاصاً، وكانت البركة تنزل في مثل هذه جميعاً، أما اليوم فلا موضع الداء محدود.. ولا الدواء معروف.. هو نفسه لم يكن يعلم موضع الداء أو يشعر به.. الألم بحر ليس يدري إن كان ستثور أمواجه أو يبقى هادئاً.. قد يظنون أنها مجرد آهة بسيطة كسابقاتها، بل كانوا يتمنون أن تكون كذلك، برغم إحساسهم بفضاعتها وقوتها.. الألم يزداد شيئاً فشيئاً.. وهاج البحر، واشتدت العاصفة، وعلا الموج وأزبد!

هنا راح يصدر أنات متتابعة مسموعة وآهات عميقة، أنين نابع من ألم عميق من صدر معذب متألم مستغيث برب العباد.. آهات قصيرة حيناً ولكنها لا تلبث أن تتفجر طويلة وممدودة لا منتهية، الوجه داكن، والعينان مفتوحتان، سابحتان إلى اللانهاية، تشعان بحنان الأبوة وعطفها.. كان كهلاً، لكن من يراه وقد اشتعل رأسه شيئاً يقول: إنه هرم قد بلغ من العمر عتياً.

شكلوا حوله دائرة صغيرة، وانتصبت أعينهم حوله. كانوا ينظرون بدقة واهتمام شديدين، متفحصين مخمنين مواطن الداء التي لا تكاد تبرحه عين.. أظلمت قسماته، تصيب العرق.. أخذته حمى ساخنة كأنها النار، وانبعثت من أعماقه آهات باكية.. مستنجدة بمن لا منجد إلا هو، وهل سيجد المرء في مثل هذه اللحظات من يخفف عنه الضر إلا الله؟ حاول الصبر، حاول الكبت، حاول كظم بركان حماه؛ حتى لا يفتح قلوبهم المرهفة، لكنها كانت تتفجر برغم كل شيء، كما لو كانت قد سلت من نفسه الصابرة المتحدية.

قام برغم آلامه وجلس على الأرض رافعاً راحتيه إلى السماء، باسطاً كفيه إلى نعمة الله الكبرى ورحمته التي لا تنقطع، وعيناه تبيكان دموعاً حارة ملؤها الخشوع والتضرع إلى الله، كلمات تنفطر لها الجبال وتتشقق الأرض «يا الله».. يا رحيم.. يا ذا الجلال والإكرام! رفع الكل أيديهم إلى السماء، مرددين نداءه بأصوات رخية لينة تصعد وتهبط معاً إلى السماء وهي تجأر إلى الله. مناجاة روحية كانت تتصاعد من أفواههم إلى السماء.. نفحات روحية سماوية هبت على تلك الوجوه الشاحبة، والشفاه الظمأى، والحلوق الجافة، والأكف الخشنة المتشققة الهزيلة المنهكة. فاستحال الشحوب إشراقاً، والظمأ رياً، والثلوم نعومة.. علا النور الوجوه وهي ضارعة ترجع الأنين، وتعانقت الأعين والأنات والدعوات والأيادي، التقت كل الجوارح حول تلك المائدة التي لن ينضب زادها مادام في الأرض من يرفع راحتيه إلى السماء.





وماتت الفرحة..!

الأنفاس متقطعة، والبرودة تغزو الغرفة الدافئة، فتسرب إلى الوجوه العارية.. غير أن الجميع كانوا يعرفون معنى الشتاء والبرودة الريفية، فكانت أيديهم الريفية تحوك أغطية للشتاء ينام البرد جنبها دون أن يغزو خيوطها المتعانقة كقلوب هؤلاء جميعاً وعيونهم وأيديهم المتشابكة.

تقلب عمر في فراشه، فارتفع الغطاء قليلاً، وتسربت إليه برودة حادة جمدت له عضلات وجهه، فجذب الغطاء عن أخته وأخفى رأسه الصغير. أغراه الدفء فأطبق على نفسه الكرى يغالب جفنيه، ناسياً أخته التي تركها نصف مكشوفة، غير أن هذه لم تتحمل هي الأخرى البرودة، فجذبت منه الغطاء بقوة. تقلبت وعلت منها تأوهات وهمهمات، ثم استسلمت للنوم.

راح عمر يتحرك يميناً وشمالاً دون جدوى، فقد أحكمت الغطاء جيداً، وراح يتعجب كيف تستطيع جذب الغطاء، وكيف تتحسس لفحات

البرد وهي نائمة، ثم أدرك أخيراً أن برد هذه الليلة تجاوز كل برد.. ربما لأنه آخر يوم من الشتاء.

أخذ عمر يغوص شيئاً فشيئاً داخل الأغطية والدفء يشده إليه، والنوم.. ما كاد يسلم فكره المشغول إلى النوم حتى اختلطت الأصوات، الأذان الذي لا يصل صوته إلى هذه القرية إلا ليلاً، ولولا الليل ما سمعه، ثم دوى صوت المنبه في أركان البيت، وراح الديك يجأر بصوته، تحرك عمر يميناً وشمالاً. ابتداءً الدفء يسري في عروقه.. الدفء يغريه.. والنوم يطغى عليه، والأذان ينادي، أزاح الغطاء عن رأسه ونهض متناقلاً، والظلام يغلف ما حوله، والبرودة الشتوية تمتزج بكل شيء في هذا البيت. مشى متناقلاً.. مودعاً الفراش وأحلام النوم إلى برودة الشتاء، قضى على الظلمة الحالكة بأن بعث الحياة في شمعته، فغداً خفيفاً نشيطاً. وكان النور الضئيل والبرودة الغربية التي تملأ أركان البيت يحثانه على الخفة والنشاط...

الشمعة تحترق، وعمر ينظر إليها بدهشة كبيرة، يتساءل في قرارة نفسه:

لماذا تحيا هذه الشمعة وتموت تدريجياً في أن؟ وكيف تستطيع أن تضحك وتبكي في أن؟

غير أن أذان الفجر ألح عليه، وصياح الديك يحثه، فمشى نحو الفناء؛ لتلفحه البرودة أكثر.

توضأ بماء بات الثلج ينهمر عليه، وكانت والدته قد استيقظت شاحبة الوجه، صفراء الجبين. صلى الفتى، وصلى الجميع، ثم التقوا كعادتهم



حول المائدة والمدفأة، وراحوا يستنشقون الدفء الممزوج ببرودة الشتاء ويتناولون فطورهم. اقترب وقت الخروج، فأطل عمر برأسه على الجو يتحسسه، كان الظلام لا يزال مخيمًا، وكان البرد يزداد بين الحين والآخر، ولكنه ظل صامتًا تائهاً بعد أن كان يملأ البيت مرحًا كل صباح بمزاجه وظرفه وابتساماته العذبة الصافية كنفسه الصافية، الجميع ينتظر أن يجود بكلمة.. أن يقول شيئًا ما.. غير أنه ظل قابعا في مكانه يتأمل هذه الصيحة التي شغلت باله. ران صمت مهيب على البيت بسكوت النديم الظريف، فبدأ أكثر برودة من ذي قبل، بل إن الشتاء اغتتم هذه البرودة التي غزت القلوب، وجمدت الكلمات في الحناجر، فغزا زمهريره الشديد البيت، وراح ينافس حرارة المدفأة الضئيلة. طال انتظاره لمولود جديد تلقي به شفتاه، غير أن وقت الخروج إلى المدرسة النائبة قد حان، نهض متثاقلاً وبريق غامض في عينيه، حان وقت التوشح بالظلام فخرج وأخته مودعين البيت ومن فيه.. مشيا وما كادا يبتعدان عن الدار حتى اشتعلت نار الظمأ في حلقه برغم البرد، أحس باحتراق شديد لن يطفئه إلا الماء، وليس كل ماء يطفئ حريقه، جرعة واحدة من يد والدته الحبيبة تقتل هذا الحريق، جرعة واحدة من يدها تروي ظمأه المجهول. دخل البيت فجأة فدهش الاثنان لعودته، ليست من عادة عمر أن يعود لماء ولا لغيره. تعود أن يرسل أخته، ناولته والدته ماء باردًا، فراح ينظر إليها حينًا، وإلى والده حينًا آخر.

تجرع قطرات من الماء البارد، ثم انتقل إلى إخوته النيام يتأملهم.. حرك أخته الصغرى؛ ليسألها عن أي نوع من الحلوى يعود به مساء إليها، فقد أعطاه والده دينارًا.. أحاط البيت ومن فيه بنظرة شاملة،

ثم خرج ليلتحق بأخته، والوالدان في حيرة من هذا التغيير المفاجئ، فتارة يظنان أنه مريض، وحيناً يظنانه يفكر في نتائج امتحانه، ولا أحد يعرف ما به، فمسحة الفرحة تملو وجهه، ولكن ضبابية من الحزن تغلفها، فلا يبدو منها إلا القليل، وعيناه كانتا تشعان بنور عجيب. لا خوف عليه مادام الفرح في قلبه، ومادام النور في عينيه، هذه هي سلوى قلوب الوالدين.

اختلط عليه الفرح بالحزن المفاجئ الذي لا يعرف له سبباً من الخوف، ولماذا يخاف؟! اليوم ستعطى النتائج، وما له ولها؟! فهو على يقين أنه الأول، وأن أخته هي الأخرى الأولى، كما كان أخوه الأول وأخته الأولى. الظلام اليوم لم يسمح لهما بتبين الوقت، وذهول عمر اليوم وبريق عينيه جعلهما يصلان متأخرين.

كانت المعلمة تتحدث، وتتنظر إليه متعجبة من تأخره ومن شروده غير المعتاد.. وراحت تعلن الرتب والجوائز، الدهول يعتريه، والألم يجتاز الفؤاد ويصارع جنين الفرحة الذي أخذ ينمو بقلبه، عيناه معلقتان فيما وراء النافذة، وأذناه تتسمعان إلى عصفير تغرد على الأفنان، تسبح ربها، فينطلق لسانه المضطرب بالتسبيح والتحميد.. وفجأة عبرت نغمة لطيفة من هذا الحيز الضيق الذي حبس فيه جسمه.. في حين أطلق العنان لقلبه وروحه يسبحان، عمر.. الأول..!! ويختطف عمر، وتعلو البسمة شفثيه، ويملاً النور عينيه السوداوين السابحتين، ويمشي بخفة ورشاقة، ويستلم دفتره، وإشراقة عينيه تبيض على القسم، فتملؤه نوراً، ثم يعود إلى مكانه، وإلى حيث كان قلبه معلقاً.



العصافير هذه المرة تغرد لكنها تحمد ربها وتشكره على نعمه السابغة، وتسخر من ذلك الإنسان الذي تسمح له نفسه نسيان آلاء الله عليه، فيرتجف عمر وتتطلق جوارحه بالحمد والثناء، وعيناه تتلألأ فيهما دمعتا فرح وسعادة، دمعتا شكر ورضا، دمعتا إيمان وخشوع، ويدق الجرس فيندفع الأطفال النجباء، ويخرجون مهرولين لزرع البشري والبسمات في البيوت، وينهض الكسالى!! أما هو فيظل جالساً، وفي عينيه بريق، وعلى لسانه ألف كلمة، حتى إذا انتهت الضوضاء قام من مكانه يحمل المحفظة بيد والدفتر بالأخرى، نادته المعلمة؛ لتسأله إذا كان يريد أكثر من هذا؟! فقال لها:

إنه كان يريد رتبة أعلى من هذه!

تعجبت المعلمة ثم ابتسمت، وهي لا تدري ما يدور في عقله الصغير من أفكار، وظنت أنه مريض!

خرج والبسمة والعبوس يتصارعان في وجهه، وما كاد يرى أخته تعلقو وجهها مسحة من الفرحة حتى انفجرت شفثاه عن بسمة صغيرة، ولكنها كانت نابغة من الأعماق، كانت الأولى وكانت الفرحة قد ولدت في الفؤاد، وزرعت على وجهها نوراً لا يكون إلا في الوجوه البريئة السعيدة، وكان الأول وكان فرحاً، ولكن فرحته ظلت جنيناً تطفو حيناً فترتسم على ملامح وجهه، ثم تختفي خلف ستائر الأفكار الغامضة. وعادا مساء إلى قسيميها وعمر كعادته حالم تائه شارد ثم خرجا.

كان الطفل وأخته يمشيان في الطريق مسرعين لإبلاغ هذه الفرحة إلى الوالدين في قريتهما البعيدة، وإلى الإخوة الذين ينتظرون النتائج

بفارغ الصبر، وكان الظلام قد خيم على الوجود، المهم أنهما يعرفان الطريق برغم الظلام، يعرفانها منذ أربع سنوات حتى في الظلام بصيرتهما. كان يقبض بأصابعه الصغيرة على دفتره الصغير بشدة، وكأنه خائف من يد غريبة تختطفه منه، وكانت أخته تقول له:

الأول، ولا تفرح؟! فيجيبها:

أنا فرح، وإن فرحتي لا تزال صغيرة، وأنا أنتظر فرحة أكثر من هذه بنتائج أسمى من هذه!!

فتتعجب وتبتسم هي الأخرى؛ لأن فرحتها تدفعها دومًا إلى البسمة. وصلا الطريق.. جرى عمر مسرعًا، حاولت أخته أن تمسك بيديه فانزلت من قبضتها كالمسكة الصغيرة، وإذا بصرخة دوت في الأسماع، وإذا بصوت يملأ الفضاء، ولدته حنجرة الطفل الصغيرة، احتكت عجلات السيارة بالأرض وانطلق السائق بالشتائم!!

جرت الطفلة إلى أهلها؛ لتبلغهم بموت الفرحة في فؤادها وفؤاد أخيها، كانت تجري والغبار يملأ قدميها اللتين تمردتا على الحذاء، يتطاير الغبار على شعرها ومحفظتها فيلوثها، ويجتازها عبر المسامات إلى دفتر الرتب. الطفلة تجري وكلاب القرى التي تمر بها تجري وتنبح تريد أن تفتك بها، لكنها لم تبال بها!! وصلت البيت تلهث، ووضعت هذا المولود الميت بين يدي والديها وإخوتها فغدت إشراقات عيونهم بالأمل سرابًا وظلامًا!

جرى الأب والإخوة إلى الطريق، فلم يجدوا شيئًا غير حبات الحلوى والمحفظة.. محفظة عمر الصغيرة الهدية.. كان عمر في المستشفى،



ملقى على السرير يحمل دفتره المملخ بالدماء، والبسمة تعلق شفثيه،
والدماء تقطر برغم الضمادة من جبينه، ولكنها كانت بسمة غريبة،
عذبة برؤية الأفئدة التي خاضت الفيافي؛ لتراه.. البسمة تولد من
شفثيه، ومسحة من نور تغمر وجهه، ولكنه ما كاد يفتح فمه ليفضي إلى
والده بكلمة السر.. حتى خرجت السعادة من فؤاده، فماتت كما تموت
كل فرحة.



obeikandi.com



اللوز المر

قطرات الماء تنهال عليه بقوة، وهو يمشي على غير هدى.. يمشي والطريق يمتد معه إلى اللانهاية، يمشي بلا مبالاة، ولكن قطرات المطر هذه المرة ازدادت غضباً، فسقطت على رأسه كالحصى. مشى مهرولاً إلى حيث لا يدري لكن لا فائدة، فالمطر لم يجد شيئاً يمارس عليه لعبة العنف غير هذا الرأس، والطريق يمتد تراءت له بقايا منزل متهدم، إنه القصر الذي قضى فيه ورفاقه أياماً، واختفوا فيه منذ أمد بعيد من المطر، وها هو ذا الآن تقوده قدماه إليه من جديد..

أحس بال ألم شديد من وقع المطر وبرودته، ولكنه ظل يجري مادامت غايته تحددت، وأصبح المنزل المتهدم هدفه المنشود، وصل إليه فوجده مثلما كان.. لم يتغير فيه شيء سوى بعض الجدران التي كانت قائمة فهوت من صروف الزمان، وربما يسقط جزء منها الآن أيضاً، وبعض الآثار لغرباء جدد لم يجدوا مأوى، ففتح لهم هذا المنزل المتهدم ذراعيه، وإنه ليفتحهما لكل مقبل عليه؛ عله يؤنسه في وحدته الموحشة، وغربته المميّنة، وها هو ذا قد فتح ذراعيه لهذا الفار من المطر، ومن البشر.. المطرود من المكان والزمان.

جلس على ترابه الطاهر الذي حركته أقدام الطفولة.. وراح يفكر،
ويسأل القصر:

كم من زائريا ترى دفعته الأيام لأن يأوي إليك أيها القصر؟ .. كم
من غريب احتضنته وأنسته؟ وكم من مطرود أسكنته بين جوانحك؟
وها أنت الآن تحتضن مطروداً جديداً تروي قصته لمن سيأتي بعده!

أسئلة كثيرة لم يكن ينتظر جواباً عليها، فقد كان صرير الرياح
يجيبه. عيناه فاضتا، والبرودة تشد شيئاً فشيئاً، وثيابه المبللة وشعره
يجعلانه يشعر بالبرودة أكثر، بل إن البرودة غزت قلبه التائه الحائر،
بالأمس فقط وهو يحتمي بالبيت الدافئ من قرّ الشتاء، الجدران
والحرارة والأغطية والقلوب الدافئة التي تمدّه بالحرارة، واليوم شريد
بين هذه الأطلال المهجورة.. السماء غاضبة، ودمدمات الرعد تدوي
في أرجائها، ويتساقط البرد وتغزو حباته هذا الركن الوحيد الذي لا
يزال محافظاً على سقفه.

يبتعد أحمد حتى يلتصق بالجدران تاركاً حبات البرد تشاركه
وحدته وآلامه، كم تمنى ألا تذوب، كم تمنى أن ينام وهي تحيط به من
جميع الجهات تطوقه وتقتل غربته، ولكنها أبت إلا أن تبكي لبكاء قلبه
الدامي الجريح، فراحت تذرف دموعها مواساة لهذا التائه الغريب، ولا
تلبث أن تذوب دموعها في التراب وتموت، فيبكي لها ولهمومه.

وأقبل الليل مسرعاً.. أقبل الليل بكابوسه الأسود الثقيل وحط على
كاهل أحمد الذي راح يسترد الذكريات، هذا المكان كان في يوم من
الأيام عزيزاً، كان عامراً بالحياة، أما اليوم فقد دالت عليه الأيام،

وتناوبت عليه صروف الزمان، وتعاقبت عليه الأجيال، ربما انتهى ساكنوه، فتركوه ذكرى وعبرة، بل مأوى لكل غريب!!.

لا.. أبداً، لقد هجره أهله، رحلوا عنه وتركوه وحيداً؛ ليضم كل من تركه أهله وحيداً، ليحتضن كل محروم اقتحمت الآلام والذكريات ذهنه، فراح يناجيه:

- أنا مثلك أيها القصر! لي والدان، ولي إخوة، ولي أهل. طردني والدي كما هجرك أنت صاحبك إلى الأبد.. أيتها الأطلال! أنت الغريبة الوحيدة، وأنا الغريب الوحيد، فضميني إليك.. احضنيني.. اقتلي وحدتي وغربتي.. وسأكون لك الصديق الوفي، والمؤنس في ليالي الشتاء الطويلة المطيرة المظلمة.. نجلس.. أحكي لك قصتي وذكرياتي، وأروي لك ماضي القريب، وأستمع إليك؛ لتروي لي قصتك الممتدة عبر الأجيال!!..

الظلام يشتد، وأحمد يحاول أن ينسى كل شيء، وأن يذوب فيه ويتفاعل مع أطلاله غير أن الكلمات ظلت تحطم كل محاولة:

- اخرج من هنا، ولا تعد إلى البيت.. إن كنت رجلاً فلا تعد.. كما كونت هذا البيت بنفسني، فكن رجلاً وكون بيتك بنفسك.. كما كنت يتيماً فكن أنت يتيماً، ولكن كن رجلاً.. اخرج وكن رجلاً.. إذا كنت رجلاً فلا تعد.. كن.. ر.. ج.. لآ..!!

رجل؟! الرجل لا يبكي وأنا أذرف الدموع.. لا.. لن أبكي.. سأكون رجلاً يا من ليس له قلب أب.. سأكون رجلاً..!!

اختلط الكلام شبه المكتوم بالبكاء، فمد يديه وسط الظلام،
ومسح عينيه بكمه المبلل.. وراح يفكر في جراحاته وآلامه وآلام هذا
المنزل المتهمم.. ما هذا بالألم.. إنها الحياة.. الحياة بأتم معنى
الكلمة، لا أحد يستطيع أن يقف أمامه الآن ليقول له:

إنك مهيض الجناح، مكلوم الجوى. لا أحد يستطيع أن يقول له:

إن السعادة أن تشعر بالبرد والحر، أن تجد كل شيء تريده جاهزاً
دائماً!!

لو كانت الدنيا بيديه لأعدم كل من ظن السعادة هكذا.. وراح يرد
على أولئك المفتونين بالسعادة ويخاطب الليل والأطلال.

- السعادة!.. السعادة أن تكون محروماً من شيء تسعى وتجد
في طلبه.. أن تفقد شيئاً ما وتسترده لا بقوتك فحسب، ولكن بلسانك
وبروحك.. أن تجرح ألف مرة، وبعد كل جرح تبتسم. لن تبتسم السماء
ولن تكون سعيدة إلا بعد بكاء مرير، وبعد غضب شديد.. السماء تبكي
شهوراً، وتغطيها السحب شهوراً، وتنطلق من أحشائها الرعود المدوية
لتبتسم أياماً، وتضحك أخرى.. والأرض تسعد، ولكن بعد ماذا؟ بعد
ألف جرح وجرح.. بعد أن تجرح وتضمد الأيام جراحاتها، ثم تصب
عليها السماء جام غضبها؛ لتتمخض كل هذه الآلام عن مولود جديد
تظل ترعاه إلى أن يصير البرعم أزهاراً وحقولاً، فتبتسم ناسية
جراحاتها التي اندملت، وناسية يوم تأتي فيه الحاصدات والمناجل
لتقطع رأس كل مولود.. وحتى الذي تغفله الحاصدات، فإن الصيف
ورياح الخريف لن تسمح بالحياة أكثر..



من ذا الذي يجдени قابعاً في هذا المكان فيظن أن لي أباً؟! إن الذي يجдени هنا يعرف أنني يتيم الوالدين، عديم الأهل مهجور.. أبي.. كلمة كنت أحب أن ألقظها، أما اليوم فقلبي مملوء ندامة لطول ما رددتها.. أبي.. لا.. منذ متى كان لي أب؟!

وتغلبه الدموع، وهو يناجي التمثال البعيد؛ عليه يسمع نداءه في سكون الليل الرهيب وصمت السماء.. دموعه تنهمر بغزارة، فيقف أحمد في عراك شديد مع نفسه الضعيفة:

- الرجل لا يبكي، وأنا أبكي.. لولم أكن رجلاً ما بقيت دقيقة هنا وحيداً في الظلام والأطلال والشتاء!!

ويمضي في عراك شديد مع نفسه.. برغم عنفه وبرغم قسوته يحبه، وسيظل يحبه:

- والدي هو رحمك أيها القصر المتهدم، فأرسلني لإشراكك وحدتك وغربتك.. والدي هو الذي سمعك الليالي الطوال تشتكي، فأنا الآن أزورك، وأكفك دموعي بين أحضانك، وأرثي عزك الزائل وماضيك التليد!!

مناجاة طويلة قضاها أحمد بين الليل والأطلال راجياً إياها أن تنقل همساته التي وضعها بين يديها إلى والده:

- أتعلم يا قصر، لماذا طردني والدي.. طردني لأنه علمني الفشل والرسوب، فلما رسبت طردني، علمني الفشل في كل شيء بانقباضاته الزائدة عن الحد! وانبساطاته الزائدة عن الحد! علمني الفشل، ولما

فشلت طردني كما طرد أخي الأكبر، وعاد بعد أن كاد فؤاد والدتي يحترق لغيابه، وكدنا نفقد الأمل في عودته، تذكر يوم سأل والده عن سليم فرد عليه ببرودة تامة وثبات: سيعود أخوك غداً، سيعود سليم رجلاً، وإلا فستضع أمك غداً سليماً جديداً لا يخفق. وظلت والدته المسكينة تبكي الليالي الطوال، وتناجي سليماً فيجلس أحمد إلى جانبها والناس نيام يواسيها، ويمسح عبراتها المنسكبة، ولكنه لا يلبث إلا قليلاً حتى تسيل عيناه بالدموع فتحترضه، وتضع رأسه الصغير على ركبته فينام ويتركها في مناجاتها وبكائها. وفي الصباح يجد نفسه في مكانه، ويجد والدته تطلق زفراتها الحارة بين الحين والآخر.. وعاد سليم فأنجبت عودته ألف فرحة في البيت، عاد سليم رجلاً يحمل الشهادة بيد وورزانة الرجال بالأخرى.

هل سأعود من متفاني سليماً، هل سأصل الشاطئ؟! شاطئ بيتنا سليماً، وأدخل صحراء قلب أهلي الواسعة سالماً مثلما عاد سليم، وأزرع الفرحة في قلب والدي بنجاح الفكرة.. هل أعود إليه رجلاً؟ ليتني أستطيع أن أثبت له أنني رجل..!

وضع رأسه الصغير المفعم بالأفكار الكبيرة بين يديه وغالبته الدموع فغلبته، وراح يشتكي للقصر همماً زاره، وألماً كبيراً، إلا أن صمت القصر وهدوءه يقولان له:

- إن ألم هذه الأطلال المتهدمة أكبر من آلامه، وهموم القصر المتواليات عبر الزمن أكثر من همومه، عندما يجد من يتألم يخفف عنه الألم، وينسى محنته الكبيرة، ويبوح للقصر بسعادته؛ لأنه رآه يتألم،

ولأن عينيه فاضتا بالدموع؛ أسفاً على ماضي القصر.. الدموع هي النور الذي ستضاء به الدروب.. عز الرجولة نحو العظمة.. ونحو السعادة.

اجتاح قلبه الصغير ألم كبير، وملاً نفسه الصغيرة أرق المشاعر، وتذكر شجرته التي غرس بذرتها بيديه يوم كان طفلاً صغيراً، ويوم كان عائداً مع والدته من المدينة، فإذا ببريق عينيه يجتاز غبار الصيف الملتف حول شيء ما توقف معه والده؛ لينظر ما اكتشفته عيناه.. كانت بذرة، كانت حبة لوز.. راح الطفل فرحاً ببذرتة.. والتف حوله إخوته ليتقاسموها.. أو ليجود بها على أحدهم، ولكنه أبقى إلا أن يغرسها، غرس أحمد البذرة والفرح يغمره، وكل صباح يفتح فيه عينيه يحمل إناء ماء يسقي به البذرة. وكانت الأحلام تملأ مخيلته، ويتمنى أن يستيقظ ليجد برعمًا صغيراً قد مزق غشاء الأرض، وخرج إلى الوجود.

وذات يوم خرج أحمد ليتوضأ، وإذا بمولود جديد قد انفجر.. قد خرج إلى الوجود.. فكانت سعادته كبيرة، وظل يروي البرعم الأخضر الصغير من حين إلى حين، وكل صباح يجده قد ارتفع قليلاً، وأحمد يكبر، والبرعم يرتفع ويكبر، والأهل فرحون.. سموها شجرة أحمد، وأحمد يبتسم كلما سمع هذه الكلمة العذبة ويفرح؛ لأنه استطاع أن يكبح جماح نفسه وهو طفل صغير لا يعرف معنى أن يزرع المرء بذرة، لتكون برعمًا ينمو، حتى يكبر، ثم تصير شجرة!!.

وذات ربيع أورقت الشجرة، وأزهرت وخرج أحمد صباحاً ليجدها قد أنجبت.. الحب يزداد كل يوم ويكبر، وأحمد يرفع راحتيه إلى السماء في كل صلاة، وطرده سليم من البيت وازدادت خطايا أحمد التي ربما ستقوده إلى الطرد.

وعاد سليم إلى البيت وأخذت أخطاء أحمد تكبر وتكبر وحيات اللوز تكبر.. وحن وقت القطاف، فكان اللوز ولكنه مر، ضحك الجميع من أحمد ومن تعبه الشديد في سقي الشجرة.. وآماله الكبيرة الضائعة، ولم يعد أحد يسميها شجرة أحمد وإنما شجرة اللوز المر، أو الشجرة المرة أحياناً!!

بكى أحمد كثيراً وعاد إلى الصلاة بعد أن تركها حيناً، وألقى بشكواه بين يدي الرحمن.. بكى إذ لم تعد له شجرة كما تمنى، وإنما أصبح عنده لوز مر، وأخفق أحمد في دراسته وطرد من المدرسة، وجاء دوره ليطرد هو الآخر مادامت الفكرة قد نجحت مع سليم، فأحمد أقوى وسيعود رجلاً بآتم معنى الكلمة.

مضى أثر من الثلث الأول من الليل، وأحمد سابح في بحر أحلامه يشتكى إلى القصر، ويخفف عنه آلامه الكبيرة القديمة، ويشاطره الهم الذي ألقته الأيام على كاهله، فتهدمت بعض أركانه وتصدع بعضها الآخر، فظل قائماً يطاول عنان السماء، ويفتح ذراعيه لأمثاله من السائرين إلى الأمل، وبرغم الشوق إلى مرافئ البحر الدافئ.

هدأت الرعود، ونام القصر، وناحت حمائمها، أمسكت السماء خيطها، وراح أحمد يفكر، ويسأل نفسه:

هل سأعود رجلاً ومتى؟..

ظن أنه لن يعود إلى والده إلا بعد تجربة الحياة. ولن يعود إليه إلا وهو شيخ طاعن في السن حينها قد يجده، وقد يسأل الناس عن قبره؛ ليقف عنده ويثبت له رجولته، لكنه لا يستطيع العودة وشجرة اللوز المر



قائمة قد تضطربهم ثلوج الشتاء لاجتثاثها، وقد يذهب في يوم من الأيام ويجدها لا تزال قائمة بأزهارها البيضاء ولوزها المر.

ما أجملها من شجرة! ما أشد مرارة لوزها! ليتها لم تثمر! ليتها كانت للظل والتأمل! لا للوز، ولا للمرارة..!

غزت الأفكار ذهنه، وحركه نوح الحمامم بالقصر، فمشى وفي نفسه ألف بركان، مشى ونوره الظلام، وسلاحه التحدي.. مشى إلى القرية؛ ليوقظ والده في الثلث الأخير من الليل، ويقوده من يده والنعاس يغالبه ويقول له: انظر.. ها قد صرت رجلاً!!

مشى مسرعاً والطريق غير المتناهي بالأمس يبدو له قصيراً، فشعلة قلبه أنسته وحل الأرض، وأنسته برودة الشتاء، ولاحت له القرية من بعيد.. غمرت أحمد فرحة كبرى بوصوله إلى القرية والناس نيام، لا شيء يسمع غير نباح الكلاب، وحتى الكلاب سكنت؛ لما أحسته في نفسه من تحداً!!

دخل أحمد الحديقة الصغيرة وهوى على شجرة اللوز المر بفأسه، وراح يضربها ضربات قاسية.. وما هي إلا لحظات حتى هوت الشجرة إلى الأرض. نظر أحمد إليها تحت ضوء الفجر الضئيل، فدمعت عيناه لعزة هذه الشجرة، ولكنه جففهما، فالرجل لا يبكي على الماضي المرير، يحب ماضيه ويحبه أكثر إذا كان مريراً كلوز هذه الشجرة.. تركها جثة هامدة على الأرض والفأس نائم فوقها.. مشى وقلبه مطمئن؛ لأنه سيعود يوماً ما إلى هذه القرية عندما يصبح رجلاً. ودع الشجرة المرة للبحث عن حبة لوز حلوة تنبتق عنها شجرة تتجب لوزاً حلواً، وتكون شجرة أحمد بحق، لا شجرة اللوز المر.

مشى بخطواته العريضة الواسعة حتى اختفى عن القرية الحبيبة،
ولما أشرق شمس الصباح خرج الإخوة ليجدوا الشجرة طريحة
الأرض، فطاروا إلى والدهم يخبرونه بتقطع هذا الخيط الذي يربطهم
بأحمد.

انفجرت شفتا والدهم عن بسمة كبيرة لم يعهدوها، وعلا النور
وجهه.. الإخوة يبكون والأب يبتسم، ويؤكد لهم أنه سيعود قريباً.



obrikahna.com



ريضية..!

هبّت الريح وتراقصت ألسنة النار، اللهب يمتد إلى راحتها المبسوطتين للقبض على السعادة، فيلفحهما ويلفح كل شيء فيها، وعيناها تلمعان وتطلبان المزيد، عينان بارقتان تتلأأ فيهما الدموع، دموع الحرمان، دموع التعطش للسعادة.

لماذا الحزن أختاه، لماذا الدموع؟ ماذا تريدان بالله عليك؟ لقد كنت سعيدة في يوم من الأيام، ولقد كنت طروباً يوم كنت تبسمين، ويوم كنت ترين النار تضحك قانعة بما في حوزتها، ولا يمتد لهيبتها لما حولها، أما اليوم فقد أصبحت ترينها تبكي!...

لماذا جمدت الشفتان - أختاه - والعينان، ولماذا سكنت الحركات؟ ربما لتجهم السماء!.. حقاً إنها كئيبة، ولكن الشمس لا تزال حية تحت طيات السحاب، تظهر حيناً وتختفي حيناً آخر، أما أنت فلا شيء فيك قد عاد، لا البسمة، ولا النظرة، ولا الكلمة، ولا الحركة.. أدركي نفسك يا أختاه، اللهب يمتد بكل نهم إلى فستانك الجميل النائم على ركبتك

المسدل حتى أخص قدميك، أيقظيه واستيقظي، النار تمتد حولك، تبكي لتجودي عليه بقليل من الثوب اليوم، وغداً بما دون الركبتين، وبعد غد بما فوق الركبتين، وهكذا حتى تترك عارية. النار تبكي وأنت تضحكين، تحاولين استرجاع البسمة القديمة، فتصدرين ضحكات صاخبة مدوية، ضحكات مموهة. ولماذا هذه الضحكات؟ لأنها لبّ السعادة؟.. قد تكون.. فالسعداء من حولك هكذا يضحكون!...

جاءت إلى المدينة بأفكارها القديمة.. بحياتها القديمة، فرأت ما لم تكن قد رآته من قبل، الناس هنا غرباء، عجباً!! الناس هنا يدوسون المشاعر.. رأت في المدينة التكلف، ورأت فيها ما لم تكن تتمنى رؤيته، كانت في أيامها الأولى تحاول الحفاظ على ما ورثته من ريفها البعيد، من حقله ورواييه.. من سهوله الممتدة وشعابه الملتوية، ومن جباله الصامدة، وكانت تقبض على عاداتها بعناء مع هؤلاء، فهم يرفضون كل شيء فيها؛ لأن كل شيء فيها يذكرهم بماضيهم الذي أسلموه عالم النسيان.

بدووها باللباس فراحت تطوره شيئاً فشيئاً حتى أسلمته للنار الباكية، للنار التي لا تريد إلا المزيد، وأصبحت أثوابهم أثوابها، وأصبح ما تحت الثوب لهم أيضاً، فهم يملكون جوارحها ويوجهونها حيثما شاءوا.. ثم ماذا؟.. أفكارك.. وما لهم ولها؟! أولم يفهم الثوب؟.. ولم تعجبهم الأفكار القديمة. قالوا لها:

- إنها أفكار العصر الحجري.

فبكت وقاومت، ولكنهم أقنعوها في النهاية.. إذا كانت السعادة لا تتحقق إلا بالثوب، فلماذا لا تتحقق بالضحكة الصاخبة.. لا البسمة



الريفية الهادئة الحاملة، ونسيت بسمتها البريئة، ونسيت نظرتها الحية، فراحت عيناها تلتهمان كل ما تقع عليه، وفقدتا صفاءهما، الظماً يقودهما إلى أي مكان تظن أن فيه سعادة من سعادة هؤلاء.

ملؤوا حياتها بسعادتهم، فراحت تبكي عمرها الضائع، تبكي ماضيها الريفي الذي لم تذق فيه لذة السعادة، ولكنهم أقنعوها:

- إذا فاتك هذا، فالحياة تتح لك ذراعيها الآن، الأمل أمامك، متعي نفسك لا تضيعي أي فرصة تحقق لك السعادة!

مشيتها وحياتها.. أفكارها كل شيء فيها قد تغير: هكذا ريفية أنت! يا ريفية، استيقظي! مهما جئت من مدينتك الصغيرة، ومهما كنت تدعين أنك مدنية.. فريفية أنت!! إن لم تكوني ريفية المولد والنشأة فأنت ريفية بالوراثة، أملك ريفية وأبوك ريفي، وإن لم يكن هذان ريفيين فجدك ريفي!!

أفيقي أيتها الريفية، أفيقي.. وإلا امتدت النار إلى قلبك الذي لم يفقد طيبته بعد، قاومي لا تستسلمي إنك ريفية والريفي لا يعرف الاستسلام، تحدي.. لماذا تقبلت مشروعاتهم الزائفة؟! ما هكذا السعادة أختاه! متى عرفت السعادة في الثوب ومتى عرفت في المظهر، متى عرفت السعادة في الضحك، مادمت في عالم المدينة فابحثي عنها بين أحضان القصور؛ علك تجدينها، ولكن ثقني أنك لن تجديها إلا في أكواخ ريفية، ثم إنك لن تجديها، حيث الزيف وحيث الخداع وحيث النهم.

استبدلت بعادتها القديمة عادات جديدة، وبأفكارها الأصيلة أفكاراً حديثة، وبثيابها المحتشمة أثواباً فاضحة، وبحركاتها الرزينة

حركات مربية!! نسيت مسقط رأسها، واستبدلت بإخوانها رفاقاً
جداً، وبأحبائها أصدقاءً جداً. ما أحلى الأخوة! وما أجمل أن يكتسب
الإنسان أصدقاءً جداً!! ولكن إذا كان هؤلاء يظهرن لك الصداقة
لتكوني الضحية، فليت استبدالها وقف عند هذا الحد. لقد أحببت
المدينة ونسيت أرضاً ولدت ونشأت فيها، أحببت المدينة ولم تعد تريد
مغادرتها، ونسيت أن لها أهلاً عليها أن تزورهم، وليسوا ككل أهل..
إنهما الوالدان!..

علموها الادعاء فراحت تدعي أن الجامعة شغلتها عن الأحبة، حبذا
لو كانت الجامعة وليس من في الجامعة! حبذا لو كانت الجامعة هي التي
شغلتها عن رؤية الوالدين وليس ما في الجامعة من إغراءات!..

ادعاءات أقنعت بها والديها اللذين أوصلاها إلى الجامعة بشق
الأنفس. أبلاهما السهر والعناء فهز الوالد هزة عنيفة دفعته إلى
المدينة، وجاء للبحث عن وحيدته.. دخل المدينة الزاهية وكانت
ابنته تشارك المدينة وأصحابها زهوهم وسعادتهم، وفجأة علا وجهها
سواد داكن، أخرست ضحكتها التي تلاشى نصفها في الفضاء،
وتعجبت الصديقات لهذا التغيير المفاجئ الذي طرأ على من أصبحت
نديمة لهن، ومحققة لسعادتهن الكبرى، فرحن يتساءلن عن سبب
اضطرابها؟

« لا تحاولي سيعرف كل شيء، إنك على علم بأنهم سيعرفون الحقيقة،
مادام جريئاً فسيفضح حقيقة حاولت إخفاءها أشهراً». أرادت أن تتكلم
فتلثم اللسان، ولكنهم علموها حتى الخيانة، خيانة الأمانة العظمى،



حتى نكران الجميل، وخانت برغم ذلك الصوت الخافت الذي يأتيها من الأعماق، فتحت فمها وقلبها ينبض، ودقاته ترتفع.. تكاد تسمع، نظرت إلى ذلك الذي يرمقها بنظرات حائرة، ذلك الذي يسألها بعينه اللتين تعود أن يسألها بهما فتفهم ما يريد قوله.

نظرت إليه، وقالت: أترون ذلك الرجل الذي يقف هناك؟ فراحت إحداهن تنظر إلى صاحب النظارات الجميلة، والأخرى إلى صاحب البذلة الأنيقة، والأخرى إلى صاحب القد المياس، ولكنها حولتهن من عالمهن الحالم.. قالت لهن: أترون ذلك الرجل الكهل، الرث الملابس، صاحب الشاش الممزق؟ فنظرن إليه بدهشة واستغراب!! طمأنتهن وقلبها يتمزق.. إنه.. إنه خادمنا، وأخشى أن يأتيني بخبر محزن عن والدي!..

خادمهم، يا للأسف!! حقاً خادمها، خادمها الذي أوصلها الجامعة، الذي حرم نفسه لذة النوم، وحرم نفسه ثوباً يضعه على جنبه!..

مشت إليه خطوتين.. ومشى نحوها مهرولاً؛ ليطفئ لهيب الشوق الذي أحرق قلبه أياماً، ويخمد نار الغيظ من هذا التغيير المفاجئ، والصدىقات يتابعنها بنظراتهن الحادة، ويسألن عن سبب اضطرابها وارتباكها غير المعهودين، مشت ومشى، فإذا بهما يقفان وجهاً لوجه، هو عالي الرأس مرفوع الجبين وهي مطأطأة الرأس ذابلة العينين، القلبان يخفقان.. يكاد كل منهما يسمع صوت الآخر، فتح ذراعيه لترتمي بين أحضانه مثلما كانت، ولكن يديها ظللتا في جيب ثوب صديقتها العصري كما يقولون، حاولت أن تقبله ببرودة مادام خادمها، ولكنه أبى إلا

احتضانها احتضان الأب لابنته بشوق وحنان، وقبلها بجرارة عاطفة الأبوة.. أما هي.. فلتفعل ما شاءت!!

الصدىقات ينظرن.. كيف تسمح لنفسها بالدنو من ذلك المخلوق البشري، وكيف تسمح له بتقبيلها؟! وقف والكلمات تتعارك لتخرج فتدوي في هاتين الأذنين اللتين عودهما الهمس، ولكن حنجرتة كانت تدفن بين طياتها القبلة تلو الأخرى، فبقي واقفاً لا ينبس بكلمة، وبقيت هي كذلك يملؤها الرعب من هذا الموقف الرهيب تنتظر إشارة منه.

حاولت القضاء على هذا الصمت الرهيب الذي ألقى بكاهله عليهما، ورأت أن تسأله عن والدتها العليلة؛ علها تقتل الغيظ الذي يملأ نفسه، فراح يجيبها وكأن شيئاً لم يكن بكل بساطة ووداعة، فوالدتها قد شفيت، وعادت كعادتها إلى أعمالها الشاقة، ثم راح يحدثها عن البقرة التي أحببتها حباً جمّاً والتي وضعت مولودة جديدة، وهو يتكلم كانت ترفع بين الحين والآخر إليه عينيها فلا ترى فيهما غير الطمأنينة القديمة، غير القناعة الكبرى بما منّ الله عليه، بل إنها كانت تلمح فيهما نوراً وصفاء لا يولد إلا من نفس سعيدة كنفسه.. والوالد يتكلم ببراءته الريفية كانت الحيرة تملأ نفسها، إذ كيف تسمح لنفسها بالوقوف أمام هذا الرجل الوفي السعيد، وهي الخائنة لمبادئها.. لأفكارها.. لعاداتها.. وله أيضاً؟! وراحت تطرح على نفسها ألف سؤال وسؤال.. من تكون هذه الغريبة التي تقف أمامك أيها الريفي؟! هل حقاً تعرفها؟ أبداً إن ابنتك قتلوها، وها هم قد أعطوك بدلها هذه المزيفة، جئت إلى وحيدتك، ولكنها ماتت، وها هم قاتلونها يرقبونك من بعيد.. يتعجبون من وقوفها أمامك، بل من قبولك الوقوف أمامها!!



لم تعد تسمع كلماته الهادئة، لم تعد تفهم شيئاً مما يقوله، فماضيها القريب عاد بمخيلتها ليزاحم هذا الحاضر الذي أقنعوها به، ثم كانت حية، وكم كانت جميلة! بالأمس فقط وقبل مجيئها للجامعة كانت تخجل أن ترسل شعرها أمام والدها، والآن تتف أمامه والشعر مسدل تتلاعب به النسومات، وبالأمس فقط كانت تخجل أن تضع الكحل أمامه، وها هي الآن واقفة أمامه، وقد غطت الأصباغ وجهها وحقيقتها.. تمنت لو ماتت قبل أن تصل إلى هذا المكان، تمنت لو أنها لم تولد.. لو أنها لم تأت إلى الجامعة.. ولكن والدها ليقتل حيرتها هز يده وراح يربت على شعرها.. وبينما هما كذلك أقبلت الصديقات يسألن، ناديتها فالتفت إليهن بخجلها الريفي وحياتها الريفي والأصباغ تذوب وتحاول الهروب من ذلك الوجه الريفي الذي أعلن ثورته.. عجباً لقد قتلنا خجلها منذ أن أسلمنا لباسها الريفي للنار!..

كلا، لقد خدرتموه، وإنه لن ينام إلا ليستيقظ!! واستيقظ الخجل من أعماقها، فاستدارت إلى والدها وعيناها مغرورقتان بالدموع، نظرت إليه لتعتذر عن خطئها الفظيع الذي لا يغفره إلا والد، فإذا به قد فهمها! تعود أن يفهم ما تريده بنظراتها الصادقة التي عادت إليها، ولم تكن لتعود لولا فضل الله، ثم والدها.. مدّ يده إلى الأرض وناولها كيساً..!! وعاد إليها فاتحضنها وهو يبلغها شوق والدتها الحار، وبيت فيها حبه وحنينه.. ثم نظر إليها قائلاً:

- أو تدرين ما به؟ فأومأت: أن لا.

قال لها: فيه لباس ريبي، رآها في حلم، وقد أضاعت لباسها، فأبى إلا أن يأتيها بلباسها الريفي!

والصديقات ينظرن، وهي تلبسه وتبتسم بسمتها القديمة. أكدت لوالدها، وعدته وعد الابنة البارة أنها ستعود مثلما كانت. حينها نظر الوالد إلى صديقاتها، وقال لهن: أو تدرين؟ إنها ريفية.. ابنة ريفي.. ابن ريفي، وستبقى ريفية برغم أنفكن.. ثم استدار إليها، قائلاً: ريفية أنت وستظلين ريفية..!!.





تعلمي وضع النقط...

وردة بيضاء تفتحت وسط صحراء.. مدت جذورها إلى أعماق الرمال، ومدت عنقها لترسل شذاها إلى الشمس، غير أن الشمس ودعت طبيعتها التي فطرت عليها! هل حقاً إنك شمس صحراء؟.. أبداً.. والله!.

تعجبي، استفهمي، قولي ما شئت، ولا تنسي مرة أنك كنت مثل هذه الوردة البيضاء التي تبحث عن تجود عليه بعبقها.. تذكرني يوم تربعت فوق أرض جدباء مثلما تربعت تلك الوردة، ومثلما تربعت الشمس وسط صحيفة زرقاء تتخللها السحب، فكان وجهك شاحباً مثلما كان وجهها!..

جلست تحلمين بالربيع، وكاد الانهيار يقضي عليك لولا هذه الوردة التي قاومت كل شيء حتى الرمال، ما أجمل أخذ العبر من ممثلي التحدي!! أغراك تحديها ونسيت أنها نامت إلى الأبد لما غابت الشمس عنها.. لا بأس.. المهم أنك كنت حينها تتمنين ربيعاً كالذي كان بقلبك

بالأمس فقط... وتحلمين بشمس ربيعية وأرض تلبس حلة زاهرة، ونسيت أنه الخريف...

كنت حقاً ربيعاً، وكانت الدنيا حوالك ربيعاً، ولكن هيهات، لقد فصلت بينك وبين الربيع برازخ وحواجز من حديد، وكان شوقك إلى ربيع ماضيك أشد من اشتياق الظمان إلى الماء... تذكرني كم كنت جميلة صديقتي! وكم كان شعرك جميلاً، خاصة تلك الضفيرتين السوداوين المسدلتين على كتفيك فتزدادين جمالاً! آه.. دعيني.. دعيني أحترق وحدي.. لا تبشي قبراً دفنت فيه ذكرياتي!..

تقولينها.. تتأوهين.. تنهدين.. لا.. لا.. لا تنهدي، إنها طبيعة الصيف.. الصيف صديقتي الساذجة لا يجب إلا الصحارى المجذبة، حتى الأشواك يأبى تشبثها بالحياة صديقتي، كيف أبقاك هكذا!.. تقولين: وماذا أبقى لك؟.. فعلاً نسيت، لقد أخذته الغيرة منك حتى امتص شبابك، نزع عنك خضرتك فصرت صحراء قاحلة.. كم نهيتك عن التأوه والبكاء!.. احتفظي بدموعك أختاه.. بتأوهاتك.. تنهداتك العميقة للربيع عندما ينجبه قلبك الباكي.. وهل تستطيعين القضاء على الابتسامة التي فطرت عليها قبل ولادتك وقبل حلول فصل الصيف؟

وهذه الأرض التي تفتريشيتها كانت البارحة ترتدي أحلى لباس، وكنت فوقها ترتدين أحلى لباس، كنت فوق بساطها، وكأنك تمتطين سهوة جواد عربي، وكنت تنظرين إلى بعيد، لست أدري إلى أين، فالحقول تمتد إلى ما لا نهاية، ونظرات عينك السوداوين الحالمتين تمتد معها إلى حيث تسير. جاءها الصيف فأعطت ما عليها، التهمت

الحاصدات، واستسلمت أنت وأعطيت ما عندك بكل براءة، ما هكذا
السخاء يا بريئة، يا طاهرة، ما هكذا العطاء يا سخية!.

أتقولين: لأنك عربية؟ عربية حقاً، عيون غزلان، عيون سوداء،
وشعر أسود طويل مسترسل، وبشرة سمراء، عروس عربية كنت أنت،
غزالة عربية أصيلة، جميلة، تشع العروبة من عينيك.. ومن صوتك
العذب المثير.. ولكنك تجاوزت حدود الكرام!.. فالضيفتان بكتا حين
بسطت كفك للعطاء ليقال عنك سخية، ليقال عنك عربية من بناتها
يجري الماء.. يجري الماء في العود..

أيهون عليك أن تبقي صفر اليدين؟.. بكى شعرك المسدول يوم
رأك تفقدين تحديك وصمودك، يوم أدرك أنك أضعف مخلوق على هذه
البيسطة، يوم رأك ضعيفة أمام حرارة الكلمة الممزوجة بالعسل.. تجعد
لما لامسته قطرات الندى.. والآن حل الخريف، غطاك.. بعثر أوراقك،
أخذ منك كل شيء، فقدت كل شيء مثلما تعرت هذه الأشجار من
أوراقها.. بهت جمالك، ذبل لونك مثلما ذبلت أشعة الشمس، تضاءلت
أشعتك وسطا عليك النسيان مثلما سطا السحاب على أنوارها، وانظفاً
نورك..

اسمحي لي أن أتدخل قليلاً في بعض خصوصياتك التي فقدتها..
وأن أسألك هذه الأسئلة المجردة من كل زيف: هل تتذكرين يوم كنت
عربية خالصة؟ أتذكرين يوم كان لسانك عربياً؟ ويوم كان جمالك
عربياً؟ وهل تتذكرين يوم كنت مؤمنة؟!.. أنساك الربيع كل هذا، ولكنه
ولى فتركك وحيدة، معدومة الوجود..

اكتنزي الدموع، احتفظي بها فأوانها لم يئن بعد.. سخية حتى بالدموع.. احتفظي بها - رعاك الله - ليلية ليلاء، اختزنيها لفصل الشتاء الذي هو مقبل عليك، الشتاء على الأبواب وأنا أعلم علم اليقين أنك تتظيرينه بفارغ الصبر؛ لتنامي فوق بساطه الأبيض، وتذرفي معه دموعاً حارة، كنت دائماً يدفعك التحدي إلى اللامعقول، تريدين بدموعك تلك إذابة الثلج وتحويله أنهاراً تغسلك مما علق بك من أوساخ أفقدتكَ عفتك، وتريدين غسل طبقات الجليد التي تراكمت فوق قلبك وفوق الأرض؛ لتنجب ربيعاً.. وتنجبين الخزي والعار!..

ذلك اليوم القريب البعيد.. حزين هو لكنك سوف تفرحين بقدمه، بل إنك تتظيرين قدمه بفارغ الصبر؛ لأنك سوف تجدين حينها من يقف إلى جانبك، إن الشتاء سلوى مكلومي الجوى، الشتاء الذي يجعلك في غنى تام عمّن اكتشفت بعد مصارحتهم أنهم رفضوك، ولن يقفوا إلى جانبك مهما عدلت سلوكك، ومهما حاولت استرجاع حقوقك المسلوبة، واستعادة عطاياك المفترطة.. وأنى لك ذلك؟! شتاء يواسيك، يشاطرك الهم والنكد، ويبعث في نفسك الحماسة على ذرف دموع حارة تلطّف من حرارتك،.. إلا أنك صرت باردة، لم يعد شيء فيك يبعث الحرارة؛ لأنك فقدت حرارتك العربية، ولأنك امتزجت وصرت هجيناً!..

ضاعت منك عربوبتك الخالصة،.. كشف عنها لمعان عينيك غير المعتاد، ولسانك العربي، أشعرين به؟ أسفي عليه لقد اختلط بعجمة غريبة.. وجمالك العربي بهت، جف، ضاع منك، بمجرد كلمات لينة نضب، وأصبحت صحراء قاحلة، ومازج الكفر إيمانك.. وغرك الربيع وغرك الشباب!..

كنت طفلة ساذجة بريئة، خدعوك بأقوالهم التي يدفعونها مجاناً دون عناء، إنها مهرهم للدنيا والخطايا.. قالوا لك:

- كم أنت جميلة!.. كم سخية أنت!.. كم هي ذابلة عيناك!..!!

فأضربت النار فيها، وأصبحت تفتال كل مغرم بالتحديق في العيون البريئة، وقالوا لك:

- كم هو جميل! كم هو طويل شعرك! وكم هو أملس!!

فرحت تمنحينه شعراءك المعجبين، ونسيت أنهم مثلك يذوبون أمام الكلمة والنظرة! غرّك كل هذا فرحت تمنحين وتمنحين دون توقف إلى أن نضبت بئر قناترك المقنطرة وكنوزك المكتنزة، ماذا بعد؟! فكري فقد تجدين شيئاً ما.. وحتى هم لم يعودوا يقبلون شيئاً منك.. علموا أن بحر عطايك نضب.. وهم لا يريدون البقايا البائتة.

«شريط مر.. ذكريات مؤلمة» مؤلمة.. وبرغم مرارتها مازال خيط الحنين يربطك بها، ويدفعك الحنين إليها، ولعل هذا سر انتظارك يا غبية!.. اعذريني فأنا لم أعد أطيق شيئاً فيك!.. أتجلسين هنا؟!.. أتنتظرين؟!.. إنك تنتظرين سراياً.. تقلدين الشمس، ها هي تي الشمس حان موعد نومها، نوم مؤقت تعود بعده مثلما كانت. أما أنت فإلى الجحيم تسيرين.. إلى الأفل.. غابت الشمس وأنت جالسة تراودك الأحلام.. أدرك الظلام كل شيء، فلا تحاولي الإفلات من قبضته.. ولعب الريح بشعرك الذي لوتتذكرين كم شويِعراً أو متشاعراً لهث وراءه.. وأنشدوا فيه قصائدهم.. أما اليوم فأنت وحدك، الظلام أمامك، والظلام من خلفك، وعن يمينك، وعن يسارك، وفوقك،

لا شيء إلا الظلام وأنت.. إلا أنت، وأنت صرت ظلماً داكناً، لا شاعر وراءك، ولا معجب، ولا منبهر، لفظوك جميعاً، ولفظتكَ الدنيا، لم يبقَ في حوزتك سوى الرياح.

لا تتعجبي، فأنت التي في حوزتها تلعب بك، وتعبث بشعرك الطويل الكستنائي، تقوده حيث شاءت فتخامرك الأخيلة، وتسيرين إلى حيث أرادت لك الرياح؛ لتبحثي عن فقراء أو محرومين.. بعثرت العواصف خصلات شعرك فوق جبينك وعينيك، وغطت عنك الوجود الذي غطاه قبلها الظلام. « آه.. آه.. أف.. آ ».

لِمَ البكاء؟، لِمَ النحيب؟ أتعبتني أختاه، لا عليك! احترقي بزفرائك الحارة، تنهدي، تأوهي، ابكي.. إلا اللطم،.. كل شيء إلا اللطم.. ابحتي عن دواء يشفي غليلك، فصيدليتي الآن خاوية، أفرغت في جعبتك، كل ما عندي من مهدئات، منذ البداية وقبل أن تنزلقي إلى الهاوية.. نورت لك الدرب.. لكن قلبك كان أعمى لم يدرك ذلك النور، ولم يبصره.. تستيقظين ويداك تمتدان نحو خديك الملتهبين بالحرارة العربية، وكأن قيئاً من حديد يشدهما.. تستيقظين على صوت منبهك.. منذ أشهر وأنت تخططين لهذا اليوم، بل لهذه الثواني القليلة، وفي النهاية توقفين نداءه!.. « ما هذا بصوت المنبه ».. من أين لك بهذه الأذان الصاغية؟! بالأمس فقط كنت لا تميزين بين صوت المنبه وصياح الديك.. ونداء المؤذن..

قفي الآن هنا، لا تحاولي الهروب من نفسك، فأذان الفجر ينادي، كنت تسمعيه قبل هذا، فتفكرين في الخروج من غير وقت محدد، أما



اليوم فأياك أن تفعل ما تريد.. إياك.. خذي وضوءك الأكبر.. أقيمي
صلواتك.. فقي هنا عند هذه النقطة.. لا تخرجي، فالأبواب موصدة
والظلام باسط جناحيه!.. هل تعلمين لماذا كنت مقبلة على جريمة
شنعاء.. لأنك لم تكوني تفقهين لغة الأذان ولأنك كنت (...) أما الآن
فتعلمي وضع النقط قبل إنهاء الجمل، وإلا فالضياع.. الضياع!..



الخريف والأمل

الرياح الهوجاء تحرك الثوب المهلهل، تتلاعب به، فتتطاير أشلاؤه في الفضاء، ويرتفع قليلاً فتسري البرودة. أخذ الثلج يتساقط بغزارة فيغطي كل شيء، ويغزو ببرودته قلبها فترتجف، ولكن هذا القلب كان دومًا مغرمًا بتلك الأطياف المتحركة تحت الظلمة الحالكة، قلبها يكاد لا يبرح مراقبة أولئك السائرين تحت الغبار، وتحت البرودة، وتحت الحرارة والظلمة، بقلوب مضغمة بالسعادة، تدفعها قساوة الطبيعة إلى التفاؤل والابتسامة.

منذ الخريف الماضي، بل الذي قبله وهي تتأمل هؤلاء الذاهبين كل صباح إلى الأمل، والعائدين كل مساء، وإشراقه الأمل تثير وجوههم، وبصيص من الأمل يأبى مغادرة ذلك القلب الحالم يدفعها إلى التمني أكثر، وإلى الحلم البعيد، وانتظار النور الذي يحطم كل ظلمة. ستنتظر الخريف.. أي خريف بصبر وتفاؤل، فقد انتظرت خريف هذه السنة، ولكنه مرّ سريعاً، ولم تستفق من حلمها وانتظارها إلا وشهر من الشتاء قد مضى! أهكذا تجري الأيام؟! أهكذا ينتظر الأطفال عامًا كاملاً



قدوم يوم، وفجأة يمضي اليوم سريعاً، وتنسى الأيام الطفلة فرحة تمنيتها في مثل ذلك اليوم؟! غير أن قلب الطفلة لم يعرف اليأس بعد، تنام لتستيقظ، وفي كل صباح تسأل عن يومها، هكذا كانت تسأل دائماً والدتها عن الصيف، وعن الخريف المنتظر، وكم بقي له؟ مثلما كانت تسألها عن العيد، وقد بقيت أيام قلائل، وفي كل يوم تفتح عينيها تنادي بلهفة والدتها؛ لتعرف كم بقي للعيد والخريف. وها هي الآن وقد مضت الأيام مسرعة تسأل عن الخريف المقبل، فالماضي ابتعد عنها كثيراً، والآتي لا يزال بعيداً، ولكنها ستنتظر بقلب حالم دوماً وروح مشرقة. إذا مضى خريف هذه السنة، فإنها تنتظر الخريف المقبل، أو الذي بعده فبعده، ستنتظر كل عام فقد تجد في خريف آخر عمرها شمعة تضيء لها درب الحياة، قد يشرق النور في آخر خريف ينتظره الفؤاد، فيضعمه بالآمال التي لا تموت والأحلام الدائمة.

كانت ضوضاء الأطفال العائدين من المدرسة النائبة تملأ مسامعها فتطربها وتزيدها شوقاً للخريف، وبينما حليلة تتأمل أيدي الأطفال، وهي تقبض على المحافظ المتحركة تحت الظلام وتتخيل ما تضمه من أقلام وكراريس، سمعت نداء ظننته بعيداً، وكأنه من وراء ألف جدار، صوت مختنق تسرب إلى مسامع حليلة أخرجها من عالمها المنتظر وحلمها القريب البعيد، استدارت لتبحث عنه، فإذا بالوالدة تقف أمام الباب شاحبة الوجه، صفراء الجبين تنادي طفلتها بصوت مبجوح تخنقه العبرات المكبوتة.

خرجت الوالدة لتذكر الطفلة بما يجب أن تعمله، فالليل مقبل بظلامه الدامس وبرده القاتل، يجب أن تذهب حليلة للبحث عن البقرة

قبل أن يشتد الظلام الذي بسط جناحيه، ولم يصبغ الكون بلونه الداكن بعد، وحليمة تستطيع أن تعرف ما تحته من أطياف، تستطيع أن ترى البقرة الغراء ووليدها.

تحركت حليمة، مشت قليلاً ثم تراجع، خطت خطوات عريضة نحو والدتها ورأسها بين يديها تمسح عنه ندف الثلج المتراكمة فوق الضفيرتين والجبين والحاجبين:

- سأذهب أماه، ولكنني أخاف الذئب والكلاب، بل وحتى الظلام..
أماه، إني أخاف أن أسمع نعيق اليوم مرة أخرى، ذلك الصوت الذي كنت أحبه، لكنك ووالدي تكرهانه، فتما الخوف بقلبي من نعيقه، ولماذا تخافين أمي من اليوم؟ هل تفهمين ما يقول أم أن أبي علمك سر صوته؟ لماذا انتفضت يا أمي، ولماذا اسود وجه والدي لما أخبرتكما أنني سمعته أكثر من مرة هذه الأيام؟!

بحر من الأسئلة صبته الطفلة على قلب والدتها التائهة، فلم تجد ما تقوله.. ربتت على كتفي طفلتها؛ لتسرع في الذهاب إلى البقرة، ولم ترد على أسئلتها الحائرة، بل لم تجد جواباً. نعم لماذا تكره هذا النعيق؟! لأنها وجدت والديها يكرهانه؟! الناس يتشاءمون منه؟ لماذا تشمئز نفسها كلما تحدثت عنه؟!

- عندما أجد الجواب سأخبرك صغيرتي، سأخبرك غداً أو بعد غد أو عندما يأتي الخريف المقبل ضاحكاً!!

حليمة تعرف مكان البقرة والوليد، ولكنها لم تتعود أن تتركهما لمثل هذا الوقت، كانت والدتها تذكرها، كما كانت نفسها تنبها لذلك،



منذ زمن وحليمة تذهب إلى الحقل مساءً، وقد تمتعت العين من الصبية وهم عائدون، غير أن الأطفال اليوم تأخروا، قد يكون البرد أعاقهم فاختفوا حيناً بعدما عودوا حليمة على الانتظار والأمل. تعودت حليمة الطفلة أن تخرج صباحاً مثلما يخرج هؤلاء؛ لتراهم وهم يمرحون ويجرون، والمحافظ ترقص فرحاً في أيديهم، مثلما يستيقظ هؤلاء فجراً تنهض هي، ومثلما يحضرون شؤونهم ترتدي هي ثيابها؛ لتراهم وهم ذاهبون إلى المدرسة برغم البعد وبرغم البرد، ومثلما يعود هؤلاء مساءً تجلس حليمة أو تقف كعادتها منذ الخريف الأول تنتظر قدمهم بفارغ الصبر؛ لترى الفرحة مرتسمة على الوجوه، وقد امتزجت بالإعياء، فتغدو القسمات أبهى وأجمل.

كانت حليمة تجري فارةً من الظلام وإليه، وإلى البقرة وأطياف من الأفكار تملأ ذهنها..

- يفصلني عامان عن الدراسة.. سميرة.. آمال.. عمر.. علي..
أتراهم كلهم في السنة الثانية، وأنا هنا أجري خلف الظلام والبقرة؟! ولكن أبي.. سأنتظر، عندما يأتي الخريف المقبل يدخلون السنة الثالثة وأنا الأولى.. ثلاثة أعوام أو أربعة أو خمسة بيني وبينهم المهم أن أذهب.. لماذا لا أدخل المدرسة مع آمال؟! لأن أباهما لا يمرض خريفاً..؟

في الخريف الماضي أقامت التقاليد جدراً بينها وبين المدرسة، وكانت آمال وسميرة الوحيدتين اللتين أفلتتا من قاموس القرية، ولما قرر الأب أن تدخل الطفلة المدرسة، ولو بعد العمر المحدد بعام، مضى

العام مسرعاً وجاء الخريف ليجد الوالد قد سقط مريضاً أشهراً، ومضى العام ولم تدخل حليلة المدرسة، مضى الخريف مسرعاً فأراً من حليلة الطفلة ومن قلبها الكبير.. وهذه السنة الثانية لم يبق منها غير القليل، سنتان من عمر الدراسة ضاعتا.. التساؤلات الغريبة التائهة تعذب قلب الطفلة، مرة يضحك الفؤاد تفاؤلاً بالخريف المقبل، ومرة يبكي خوفاً من المرض، ومن تلك المحنة السوداء التي غلفت وجه والدتها لما أخبرتها أن يوماً غنى لها أكثر من مرة على أفنان الأشجار، وهي تراقب العائدين من المدرسة.

لم تعد حليلة تفكر في الظلام ولا في الوحل ولا في البرودة، كل ما يهمها أن تعود إلى البيت مع البقرة وعجلها الصغير لتجد الوالد قد خف عنه الألم. لتطلب منه أن يحكي لها قصة السلحفاة، تلك القصة التي لا يرويه لها إلا على فراش المرض، ولا يرويها إلا ودموعه المكبوتة تتلأأ في عينيه فتزيدهما بريقاً وأملاً وتنجب البسمة من شفثيه.

- أي مرض هذا الذي لا يزور والدي إلا خريفاً؟.. لكن أبي يعلم أن الله يستطيع إنقاذه مثلما رحم السلحفاة التي أدركها الجفاف وسقطت في البئر مخلفة صغارها، أدركتها رحمة الله فعادت إلى أبنائها بعد أن هطلت الأمطار وامتألت الآبار. مثلما رحم السلحفاة، فإنه يستطيع أن يشفي والدي من مرضه، لا يهم الخريف أو الشتاء أو الصيف، المهم أن يشفى والدي من هذا الداء.. لكن ليته يشفى قبل الموسم القادم؛ ليذهب معي إلى المدرسة للمرة الأولى، كما ذهبت آمال مع والدها وذهب الأطفال جميعاً!!

البرودة تشدد، والجليد يهوي على قلب الطفلة الدافئ الحالم، فلا يرى غير قطعتين صغيرتين تتحركان تحت الظلمة الحالكة. راحت الطفلة تنفخ في يديها، باحثة عن دفاء يملأ قلبها الخائف، وكلما اقتربت من تينك القطعتين زادتا نأياً، تراءت لها البقرة بعيدة، ولكنها ظلت تجري وقد ألقى الليل بكله على الدنيا، فغابت القطعتان ولم تعد حليلة ترى شيئاً، كانت تجري وتبحث ببصيرتها ومشاعرها المرهفة وحواسها؛ عليها تسمع أنفاسها وتؤنب النفس المولعة بالانتظار. ابتعدت كثيراً عن الديار، وملاً عواء الذئاب الجائعة الباحثة عن فريسة في الخلاء مسامع حليلة، ولكنها ظلت تجري إلى ذلك المكان الذي غدا بعيداً.

امتزج نباح الكلاب بعواء الذئاب، فأنزل الرعب في قلب الطفلة الحالمة بشمس الخريف.. وراحت البومة تضي على هذه الأصوات الجائعة نعيماً حاراً، فترأى المأتم قاتماً أمام عينيها، الظلام والذئاب والكلاب، ثم هذه البومة التي أخذت تملأ الفضاء بنعيب كان بالأمس غناء، أما اليوم فكل شيء عظم من خوفها وآلامها وعيائها. تصيب العرق من جبينها برغم الجليد، وأحست الطفلة بالحرارة تفيض من جسمها المثقل بالأعباء وقدميها المنتعلتين بالوحل.

ابتعد الخريف، ولم تعد حليلة تفكر فيه، ولا في قصة السلحفاة.. أن تصل ذلك المكان القريب البعيد، أن تعود إلى البيت ومعها البقرة والوليد.. تلك غايتها.. تسربت أنفاس حارة إلى مسامع حليلة، أنفاس تعرف منبعها، لكنهما لا يزالان بعيدين، حدثتها بصيرتها الحادة بذلك فخفضت قدمها وجرت كالبرق إلى حيث تميل النفس، فقد عهدت تلك الأنفاس الدافئة.

راحت حليلة تجري إلى حيث تقودها النفس، ولكنها سقطت فجأة، وعلت منها صرخة دوت في هدوء الليل وغزت أمن الكائنات التي تختفي من الإنسان نهراً وتخرج ليلاً عندما ينام الجميع للبحث عن طعام. فرت الذئاب وتبددت أصواتها بعيداً خلف أستار الظلام، وطارت البومة تكتم بكاءها، ولكنه لا يلبث أن ينفجر فلا تسمع منه حليلة إلا الهمسات، فقد مضى ليحتضنه الليل بعيداً عن هذه الصرخة التي أرادت منافسته. تبددت الأصوات، وهدأ الليل فلم تعد تسمع غير أنفاس متقطعة بعيدة وغير نباح رهيب يدور حولها، راحت تلتقط الحجارة بكلتا يديها، وترمي ذلك الكلب الذي مازال يبحث عن شيء آخر وبحركات تائهة مرتجفة تصيبه مرة وتخطئ مرات، وقفت في مكانها لا تستطيع حراكاً، وظلت ترميه بالطين والحجارة وبكل ما تقع عليه يداها، فسواد الليل لم يسمح لها برؤية أي شيء. رمت بحركات خائفة طائشة حتى غدا النباح بعيداً أو تبدد في الشعاب والوهاد غير عابئة بالنزيف الذي حل بقدمها.

وعادت إلى الليل طمأنينته وهدوؤه، واقتربت الطفلة من البقرة النائمة والوليد، جلست بينهما والدم الحار ينزف من ساقها، راحت تبحث بيديها؛ عليها تجد ما تضمده به الجرح، فقد أدمى الكلب ساقها، لا شيء غير الطين والحجارة. تحسست الجرح وهو فاتح فمه، كان بحرراً من دم، جرح شقه الكلب من الوريد إلى الوريد، الدم يتدفق ولا شيء أمامها.. يجب أن يهدأ الجرح وينام مثلما نام الليل، انتزعت منديلها وتركت الشعر عارياً للجلد يلفحه؛ لتغطي الجرح الكبير، لتكم فمه؛ لكي لا يبكي ويبكيها. الدموع تريد النزول من شدة الألم وحليلة

تردها، تخنقها؛ لأن الليل لا يبكي، ولأن الذئب لا يبكي، ولأن.. تمرّد
الدم على المنديل الكثيف واصل تدفقه، مدت يديها الصغيرتين إلى
فستانها، مزقت منه قطعة..

أسرعت.. فالوالدة تنتظر تحت تلك الشجرة، والأب وحده فوق
فراش المرض يتقلب ويتألم، يسأل عن حليلة.

ربطت حليلة جرحها وقامت برغم الألم مستجدة بالظلام أن
يرعاها من الكلاب والذئاب؛ لتجري خلف الخريف قبل أن يأتي بغتة،
ثم يمضي فارقاً من قبضتها. كانت تسيّر وتحدث نفسها عن آمالها تحلم
بالشفاء وبالخريف وبالمطر الذي ينقذ السلحفاة لتعود إلى صغارها..
كانت تسيّر وتحدث نفسها عن آمالها العريضة، وتحثها على السير
مهما كان الجرح بحرّاً.

- عندما يصبح الجرح بحرّاً يجب أن أعود لأسمع قصة السلحفاة
ألف مرة، يجب أن أجري لألحق بالخريف، يجب أن أكون السفينة..
عندما يصبح الجرح بحرّاً يجب أن أصل قبل الخريف، وقبل المرض،
وأن أصل مع الصباح..

مهما أدمى الانتظار الفؤاد فصار جرحه بحرّاً، وأدمى الليل النفس،
وغدت جراحاتها بحرّاً ومهما شق الكلب بحرّاً في الساق، فستجري
حليلة لتلحق بالركب قبل أن تلتهم الذئاب والبومة الأمل.. كانت تجري
وتحث البقرة والوليد على الجري والدم يتدفق من بحره، فقد حدثها
النفس أن الخريف غدّاً...!!



obeikandi.com



المرآة

كانت أنفاسها الحائرة تغزو صمت الغرفة الهادئة، تبدد وحدتها، يملأ الضجر الغرفة، وتتبعه الحيرة عجلي، فتطلق تلك القابعة في ذلك الركن المظلم مرة أخرى زفرات مختنقة ساخنة.

النفس حائرة والغرفة ضاجرة والأوراق هي الأخرى تائهة، تكدست فوق المكتب المثقل بلا انتظام، أوراق حمراء، صفراء، زرقاء، بيضاء، تتصارع الألوان ليبقى الأقوى والأنقى.

اليدان تتحركان في غياهب المجهول، فتصطك قارورة الحبر بقارورة العطر، يتصافح ذلك الحشد الهائل من الألوان والروائح ويتمازج. منذ أشهر والفراغ يمزقها، بل منذ أعوام، ويزداد كلما وجدت نفسها وحيدة، لا أحد يحدثها عن زيف الحضارة وبريقها، لا أحد يقدم لها تقريراً عن أحدث مستجدات الموضة، أحدث صيحات العطور والثياب.. عودوها بأخبارهم اللامنتهية عن مستجدات الحضارة.. الجري وراء تلك المخدرات التي تجعلها الأسعد والأجمل.. وصدقتهن

المرآة حيناً من الدهر، وأرتها الصورة الكاملة للجمال المزيّف والبريق المغشوش.

الأوراق تتصارع عليها الألوان، الصفرة تهاجم الحمرة، وتذوب الزرقة في البياض، ويتلاشى الحبر الأسود وتسقط الأقلام، تنفض أميرة الأمس يديها وتلملم أوراقها الحائرة، وتجلس والألم يعتصر قلبها الجريح، والحيرة والتساؤلات تتجاذبانه، لماذا هجرتها العيون؟ لماذا فارقت مسامعها كلمات الثناء؟ لماذا قطعوا عنها ذلك النفس من الأخبار التي كانت بمنزلة الهواء الذي تستمر به حياتها؟!!

- ولكن حسناً فعلوا فقد أتلفت تلك المستوردات كل ما أملك.. ثم إن ما عندي من عطور وأصباغ و... و... يكفي إلى أجل مسمى، وسأسأل نفسي عما جد في ساحة الجمال والأناقة.. سأعرف أحدث موديلات الموضة الصاخبة.. سأعتمد منذ الآن على نفسي ولن أتطفل على موائدهم القديمة.. لن أنتظر منهم جريدة أو مجلة، لقد أصبحت قادرة على كل شيء.. سأقتني أفخر الأشياء؛ لأرغم المرأة على الاعتراف، وأرغم أعينهم على النظر..!!

استلقت على حافة سريرها وراحت تتساءل عن غضب المرأة، يجب أن تبدل بها مرآة أخرى تفهم معنى العصري.. ومعنى المستجلب من وراء البحار، وتفهم معنى التمدن، بل يجب إقناعها، إرغامها على الاعتراف، على النظر، أليست من مستحدثات الحضارة..؟!!

انتصبت غاضبة، وقادت خطواتها نحو تلك العطور والأصباغ الجاثمة فوق المكتب، المنتظرة من يقتل شوقها وحينها.. راحت تحمل



بيديها المضطربتين الأصباغ، وقفت أمام المرآة تسألها: أي الألوان أولى؟ ربما تبدأ بالزهري.. لا بالأحمر.. فتغمس يديها في الحمرة وتمدهما إلى الوجه المتعب الذي اختنق لونه وتلاشت قسماته واتسعت تجعداته! ثم تنظر إلى المرآة فلا تقرأ شيئاً في صفحتها الغامضة.. تحمل لونهاً آخر.. وتعيد الكرة أمام ضباب المرآة وجحودها!!

ظلت اليدان تنتقلان من لون إلى لون، ومن عطر إلى عطر، والقلب والنفس يتابعان ذلك الانتقال دون جدوى، فلم تعد المرآة تكشف لها غير الزيف والخداع.

ترقرقت دمعتان منها في المآقي وهي تقاوم الغضب والحيرة بتعديلات طفيفة، تزيد من هذا وتمحو آثار ذلك، ولكن.. يبقى اللون واحداً، والشكل واحداً، والقسمات باهتة مثلما كانت، والضياع يهدد العينين الباحثتين عن زيف الحضارة، عن الجمال، عن السعادة الترابية.

اختلطت الألوان وغدا الوجه مزيجاً منها جميعاً، ذابت ملامحه، لا شيء غير العينين التائرتين عليه وعلى المرآة وعلى الأصباغ، وغير الأنفاس المتقطعة الغاضبة التي تقذف بها رثتها، وغير الطرقات الخفيفة التي كانت تسمعها ولا تجيب الطارق.

تحركت نسيمات في أحشاء الغرفة المفتوحة النوافذ، أعقبها تيار بارد جليدي كقلب هذه الثائرة على كل شيء، هذه التي أدمنت الأصباغ والألوان والعطور، وعشقت مخدرات العيون والقلوب فخررت بها زمنًا، وها هي الآن تفضحها بعد أن امتصت نضارتها القديمة وإشراقتها وجمالها البريء.

- يجب أن تعترف المرأة.. يجب أن تبصر..

قد يكون الفستان الأصفر هو الذي أضفى عليها هذه المسحة من الشحوب، فلتلبس الأحمر أو الأزرق، بل الأبيض لينسجم مع كل ذلك الجدار من الأصباغ. ولكنها ترفض في الأخير كل ذلك الحشد من الفساتين أمام جحود المرأة أو اعترافها، والهواء يصفع النافذة فيرتفع الشعر المعالج بأصناف المراهم والعطور، وتلتوي خصلاته وتتداخل كالهشيم عندما تذرره الرياح.

- أين التي علمتني فك ضفائري.. أين الرفاق المعجبون.. أه بقيت وحدي في المتاهة التوي.. وأكتوي..!

رمت بالفساتين على حافة السرير، وراحت تضرب الحمرة بالخضرة بالزرقة.. القوارير تصطك، وشظايا الزجاج تتطاير من حوالها، والعطر يبخر في ساحة الغرفة و«أميرة الحسن» في زمن مضى ترثي زمن الزيف والخداع، يملؤها الغضب على المرأة والعيون الجاحدة. ما عادت تعرف طريقة أخرى للخداع، ما عادت تستطيع إخفاء تجاعيدها الكثيرة، ما عادت تقدر على إخفاء حيرتها وضياعها. الامتحانات على الأبواب، والدفاتر تستغيث، والأوراق تائهة فوق المكتب، يختلط حبرها مع تلك الألوان والسوائل، فتغدو باهتة كلامح صاحبها.

تعود إلى المرأة ثانية تتأملها، تسألها ولكنها لا تجود عليها إلا بالحقيقة التي رسمت على صفحاتها، مزيجاً من ألوان، خليطاً من ترسبات لا منتظمة، خليطاً من أصباغ خارجة عن حدود المعقول..

اعتراها الذهول، تكاد تسأل نفسها من تكون.. لا أحد يجيب، فقد قتل الزيف كل أصالة، ومحا كل انتماء.

شعرت بالاختناق من تلك العطور المتمازجة، فراحت تفتح الباب لتجلب هواء نقياً، حتى الغرفة لم تتحمل رائحة هذا الخليط الذي لا يختلط. مشت بخطوات متناقلة نحو السرير، تمددت كالجثة الهامدة، وراحت تسأل نفسها عن سر هذا الصداع، هذه الحيرة، ذاك الذهول.. يداها هما البادئتان بالجرم.. هما اللتان عبثتا بالشعر أولاً، سمحتا للحضارة بأن تجول فيه وتحصد ما تشاء منه.. ثم راحتا إلى الوجه الذي لم يتعود زيف المدنية؛ لتغرقاه في بريقها الآسن.

هذه اليد التي كانت تتحاشى هبة ريح، تخاف رائحة الرجل حولها غرفت حتى النهاية، أسلمت الأصابع والأكف، تركت اليد تبجر في أكف الآخرين، ثم أبحر الشعر.. وأبحر كل شيء فيها في برك الحضارة الآسنة، تمرغت في أحوالها حتى الثمالة وها هي الآن تستفيق لتجد نفسها قد عبثت من الزيف، من الكدر والطين، ولا شيء يداويها أو يغسل ثوبها.. ويرجع إليها طهرها.

يوم رآها أمير الوفاء تسبح.. تريد الغوص في بحر الحضارة أجرى في اليم الكبير سفينة، وراح يلهث وراءها؛ ليمنعها من الغرق، كانت تطير من مكان إلى مكان، كلما مدّ لها الخيط ليجذبها إلى حيث الطهارة والصفاء قفزت لتصطدم برجس من أرجاس بحر الحضارة، كم نادى بصوت يخنقه الموج؛ لينجيها من عباب البحر المرتطم الأمواج!! لكنها لجأت إلى الحضارة تأويها، ارتفعت الأمواج وحال

الموج بينهما، أبحر بعيداً؛ للبحث عن حلم هادئ جميل كنفسه، ولم تعد تسمع عنه شيئاً، فقد أغراها بحر الحضارة زمناً، أطعمها إلى حد التخمة بمستجداته، سقاها مخدراته حتى الثمالة. آواها البحر زمناً، أنار لها الدرب بظلامه الدامس زمناً، وها هو ذا قد ثار عليها الآن، ارتفعت الأمواج وأزبد البحر، راحت تضرب الأمواج بيديها اللتين امتص الزيف كل قدرة فيهما، والشاطئ بعيد، لا أحد في اليم غير الفرقى والغائبين عن الوعي، غارق يستجد بغريق! تعالت صيحات الضياع والحيارى، أحست بالاختناق، الأمواج تداهمها ولا يد تدركها، عبت من الأمواج، وهوت إلى القعر؛ لتعب من بحيرة الأكدار والطين.





انتظار تحت شمس الغروب

توسط قرص الشمس السماء، وهي لا تزال قابضة في ساحة الدار كتمثال هامد لا حراك لها. مرّ بها بعض أهل المزرعة، لكنها لم تطر كعادتها إلى البيت.. لم تعرهم اهتمامًا!! فقد كانت شاردة سابحة في الآفاق البعيدة تبحث عن شيء ما.. ضاع منها.

شمس هذا اليوم محرقة، امتد لهيها الوهاج للبحث عن قطعة لم تلفحها شمس صيف المزرعة بعد، فلم يجد أين يدس أشعته! لقد مضى عليها أكثر من شهر، وهي تلفح ذلك الوجه الأسمر الشاحب، وتلك اليدين الريفتين اللتين تعودتا العمل في زمهرير الشتاء، وتحت لهيب الصيف.

طاف أحدهم بالبيت غير أن عينيها كانتا تبحثان عن شيء صقله صيف المزرعة بحرّه وجفافه وغباره الذي تذرّوه الرياح على الوجوه.. والريفي لا يبالي بها، ينفذ الغبار بكلتا يديه ويذهب ليتحداها. لم ترفع عينيها إلى هذا الذي علمته المدينة الرقة والليوننة، والذي لم

تتعطر روحه برائحة الريف، وتأكدت من ليونته عندما ارتفعت الشمس قليلاً، وصوبت سهامها المحرقة إليه، فراح يبحث عن الظل. مشى متناقل الخطا إلى البيت، حيث الظل والماء البارد، متسائلاً عن سبب انتصاب جميلة في ذلك المكان منذ الصباح، ولا مبالاتها بسهام الشمس المحرقة.

تجمعت قطرات العرق فوق الجبين، وأحست فعلاً بالحرق في أحشائها، فنهضت ومدت البصر بعيداً، ولكن لا أحد في الطريق! عجباً لم يعودها مرارة الانتظار هكذا! كان يعود قبل أن تشرق الشمس، ولكنه اليوم تأخر أكثر مما يجب.. غزت الأفكار ذهنها الشارد، وملأت الأسئلة عليها كل شيء. خلف البقرة التي مضى عليها نصف اليوم، وهي حبيسة لجميلة ترعاها، ومشت نحوها لتجدها واقفة تنتظر يداً تمشط شعرها، وتفتح لها الباب لتخرج، وحنجرة تطلق لها أصواتاً عذبة تحولها من اتجاه إلى اتجاه، كم هي شاحبة اليوم، وقد ملأت الأعشاب الدنيا فكيف ستكون إذاً في الشتاء حيث يفرض عليها الحصار فلا تخرج ووليدها إلا نادراً وقد لا تخرج حتى يطل عليها الربيع!!

حدثت البقرة بقلب منتظر، وراحت تمشط شعرها والسعادة تغمرها بما بذلته من أجل هذه الرفيقة في الشهر الذي مضى، يوم كان محتمماً عليها أن تخرج ليلاً وعين والدها ترقبها من بعيد؛ لتقتني آثار الحاصدات، وتجمع ما شاء لها الله من قصب الشتاء.. حينها كان الوالد مريضاً.. وهل شفي الآن حتى تقول: إنه كان مريضاً؟! إنها تعلم أن الألم مازال يعذبه، امتص منه الكثير، فغداً شبهاً يمشي على الأرض، وزادته محنة الحر هذه، فجفت ماء البئر الأم التي ينهل

منها أهل المزرعة جميعاً مما اضطره للبحث عن الماء مريضاً كان أم
سليماً!!

حملت حزمة من القصب بعناء، ووضعته بين يدي البقرة؛ عله يسد
رمقها ريثما يعود الوالد.. الوالد!! وتذكرت غيابه الذي طال، ما أشد
حرارة الانتظار! ما أمر الانتظار المجهول!! عادت إلى مكانها من جديد
لتبحث عنه بعينيها السوداءوين المغلفتين بمسحة من الكآبة والشحوب
في الطرق الممتدة، قد يأتي من هذه.. لا، بل من تلك فتلفت إليها، بل
ربما من هذه فهي الأخرى تؤدي إلى إحدى الآبار!.

ظلت جميلة واقفة تحت قرص الشمس تدير البصر والفؤاد بين
الطرق الملتوية دون جدوى. الناس في مثل هذا الوقت من النهار
يكونون قد قضوا شؤونهم، وهم الآن في ظل البيوت وبرودة الماء،
أما جميلة فوحدها تحت شمس المزرعة الحارة التي أبت إلا أن تقبل
وجهها الشاحب كهذه الحقول الحزينة المتأوهة. اشتد عليها الحر بعد
أن سرت الحرارة في العروق، واشتد بها الظمأ فدخلت البيت تبحث
عن جرعة ماء بارد تطفئ نار الفؤاد، وتذيب قطرات العرق التي كادت
تغزو بريق عينيها. لم تجد شيئاً فالوالد لم يعد بعد، وليس من عادته أن
يطيل الغياب عن البيت فهو يعلم أن جميلة وحدها، وأن البقرة تحتاج
إلى من يقودها إلى الحقل لترعى، وإلى الوادي لتشرب، ثم هذا العمل
الذي ينتظره والذي لولاه ما وجد ما يستدر منه القوت.

سبحت بعيداً فأنساها التذكر الظمأ.. وأنساها الحر، ولم يعد لهذا
البيت أن يضم جميلة وحدها، فخرجت من جديد لتبحث عنه، وتساءل

بعد أن نفذ صبرها. قد يدلها أهل المزرعة عليه، وقد يواسيها أحدهم ويشاركها اضطرابها وقلقها، لم تجد شيئاً غير اللظى. نام الجميع تحت ظل البيوت؛ حتى لا يتسبب منهم العرق عندما يتذكرون، وأن شمساً كشمس هذا اليوم تلمح كل شيء، حتى الزواحف اختفت، لم يعد أمامها إلا حل واحد أن تذهب للبحث عنه بنفسها، ولكن كيف تذهب ولم تطأ قدماها تلك الفيافي منذ أمد طويل، حيث كان يصطحبها معه يوم كانت صغيرة! أما اليوم فلا شيء في هذه المزرعة يسمح لها بالخروج حتى الكلاب. وأي مكان ستلج والآبار عديدة والأودية كثيرة؟! وهل تسمح لها ذاكرتها المتعبة باسترجاع أيام الطفولة وآبار القرى الممتدة؟!!

الشمس تخترق أشعتها الجسم المنهك الذابل، وهي واقفة تتصارع الأفكار في رأسها الملهتهب فتمسكه بيديها؛ كيلا ينفجر، ويبحث ذهنها المتعب عن حل يخرجها من خوفها وتردها الكبيرين، الريفي لا يعرف التردد وجميلة مترددة!! الريفي شيمته الصبر وجميلة تغلبها العبرات فتزلق وتهمر بغزارة تنزل على الأرض ساخنة كالنارا! ولماذا تبكي؟..

مرت فراشة في الفضاء كفراشات الطفولة العذبة، فلوحت بيدها، وإذا بالفراشة أضحت سجيناً القبضة الريفية، مسحت الدموع والأصابع تضغط على الكائن المعذب بجماله، وتذكرت جميلة أن الإنسان يشبه هذه الفراشة تماماً عندما يقبض عليه الألم وعندما تحاصره الوحدة فتعصر أحشاءه، أرادت أن تطلق سراحها، لكنها فتحت قبضتها القوية لتجد الفراشة قد ماتت! مزقت الأصابع الريفية الجناحين، وسحقت الرجل.. ألقته بصورة الإنسان والفراشة تعذبها، والوحدة تقضي على بعض آمالها. لماذا الوحدة؟! قررت أن تقتل وحدتها ووحدة والدها



القاتلة، قد لا تعرف نفسه إحساسًا بالوحدة، أما جميلة فلا، لقد كبرت ولم يعد قانون القرية يسمح لها بالاتصال بالغير أو الخروج، عودها أخاها اللذان يدرسان في المدينة على المفاجأة، ولم يمطرًا هذه المرة بمفاجأتها، همها الأكبر هو هذا الوالد الذي غاب عن البيت منذ الفجر، ليتها ذهبت معه ليعودا وشمس الصيف لم تشرق بعد، وأين ذهب الآن؟ ستذهب بإرادتها الريفية للبحث عنه.. ارتدت ثيابها الريفية، ومشت تحت أشعة الشمس المحرقة، تحت مظلة النار الجائعة، كانت تحاول أن تتسى لفحات الشمس كلما تذكرت أن والدها أيضًا تحت رحمة شعلة النار التي قذفت بها الشمس.

انطلقت بخطى عريضة متعثرة حينًا، كانت تلتفت إلى الوراء؛ خوفًا من أن تدركها العيون، فتحذف من قائمة الأسماء، غير أن الناس كانوا نيامًا وجميلة تجري، أخذت قطع سوداء تغزو الوجود، تكدست طبقات السحاب الداكن حول الشمس، حاصرتها، منعته من النظر إلى من تحب، وملأت دمدمات الرعد الأسماع، وهي تجري تحت الغيوم الداكنة، وتتبعها حيث سارت. قادتها قدماها إلى أقرب واد كانوا يردونه كل صيف، فأطلقت العنان لساقها، وتطاير الغبار من حواشيها، وهي تجري ولا شيء أمامها سوى النهر الكبير، والوالد الذي اشتاقت إليه أكثر مما مضى. لم تشعر بمثل هذا الخوف حتى وهو طريح الفراش يئن، أما اليوم فقد حركها بركان شوق إليه، وهز الخوف قلبها، فانتفضت وخفت قدماها أكثر فأكثر.

ما هي لحظات حتى لاح لها من بعيد، رأت الأتان تقف أمام الوادي رافعة الرأس والحشيش أمامها والماء، إنها أتانهم، ولكن عينها كانتا

تبحثان عن ذلك الذي عودها عليه. من ستخدم الآن، من ينادي عليها غيره؟ لا أحد في الدار غيرهما، يتناديان ويتناجيان.

كان شاطئ الوادي حزيناً، تجلس قربه البراميل باكية، منها ما سقط في الماء فساقيه، ومنها ما هو مرمرى على الرمل والحجارة، أما الأتان فواقفة برغم الشحوب وبرغم الهزال أمام هذه الخضرة التي تحيط بها وكأنها وسط صحراء قاحلة، رافعة رأسها ترقب الطريق، فقد عودها سيدها وجميلة أن يقدمها لها كل شيء وها هي ذي ممتعة عن الطعام والماء برغم خضرة المروج المغربية وماء الوادي!! قادتها جميلة فاستجابت، وقربت رأسها من الحشيش، وراحت تبحث عنه خلف الأشجار المتمايسة، فأثار قدميه مرسومة على حافة النهر، ظلت تطير من شجرة إلى أخرى؛ عليها تعثر عليه جالساً يتألم دون جدوى. أرادت أن تسأل، ولكن من ستسأل والوقت ضحى، ليس هنا في هذه المروج إلا ذلك الشيخ الذي كان يرقبها، توجهت إليه وكلماته الغامضة وهمماته تملأ أذنيها فوجدت عنده الجواب..

وجده العمال مغمى عليه صباحاً في هذا المكان، فحملوه إلى المستشفى وسيعودون به قريباً؛ لأنه متعب. ملأ الذعر قلبها وغزاه الخوف فانفلتت العبرات من المآقي؛ خشية أن تخنقها جميلة، لكنها لم تملأ البراميل.. ترفع يديها بين الفينة والأخرى تتحسسها فقد ينزلق هو الآخر ويختار الغربية بعيداً عن الحرارة والهواجس الغامضة، ورفعت البراميل بعناء شديد. ويدان مرتجفتان ونفس حائرة لا تدري أين ستذهب وقد غاب الحبيب الموجه لخطواتها؟! تذكرت نصيحة الشيخ فأسرعت المسير إلى المزرعة قبل إقبال الليل بظلامه الدامس وحمله الثقيل؛ لتتظن هناك.



أسرعت جميلة، وهي تحت الأتان على المسير، سارتا ودمدمات الرعد العنيفة تصم الآذان. وانهمرت الأمطار كتيار متدفق، تبلل الشعر وتبلل الثوب الريفي، وغسل ماء المطر آثار العبرات. وصلت جميلة إلى البيت تعصر الثوب والضيفرتين فينزل الماء بارداً، وتعصر القلب فتنزل العبرات ساخنة. توقف المطر وظلت جميلة تنتظر الأب الحبيب بفارغ الصبر، فالشمس نامت ولن تعود الآن.. قد يخنقها السحاب أياماً.

خرجت إلى المكان الذي جلست فيه صباحاً بعد أن تبددت السحب، وعادت الشمس حانية دافئة، وراحت ترسم خطوطاً غامضة كغموض هذا اليوم بأصابعها الريفية وتمحوها. كانت تخط وتمحو الخط، ثم تعيده. الغربان تطلق أصواتها في الفضاء وجميلة تنتظر غير عابئة بهذه الأصوات التي طالما تشاءمت منها.. ولا بهؤلاء الذين يحومون حول البيت، بل إن حمرة الغروب كانت تبعث فيها الأمل، فلا تزيد إلا خطوطاً وخطوطاً وانتظاراً تحت شمس الغروب، وأصوات الغربان المتبددة في الشعاب والأودية!!



obeikandi.com



التلاشي في رحم الماء

المطر خيط من السماء يرقص لدمدمات الرعد العنيفة، ولا شيء يحركها سوى رائحة طيبة الشذى تسربت إليها وهي واقفة.

راحت مخيلتها الضيقة تسبح في جوف الغروب الهادئ، وكل شيء أمامها يتفجر غضباً على «التلاشي».. ولسوف تتفجر الأرض غاضبة لا محالة على البرودة التي تحملتها أمداً من عمرها، ستواكب ذلك الغضب بابتسامة دافئة.

ازدادت السماء غضباً، فقذفت بكل ما بين يديها، وازدادت الأرض عبيراً طيباً، تبلل التراب بعد قحط طويل فأعطى أريجاً ينسي الهموم ويذيب أكار النّفوس الخائفة.. انتصبت عائشة كشبح هادئ، وراحت تستنشق هذه الرائحة التي طالما انتظرتها، ونسيت كل شيء.

راحت تتأمل من كوة صغيرة قمم الجبال ولحن المطر الغزير يملأ سمعها، لحن يعزف للأودية والغدران الظامئة إيقاع الحياة، وتغني للسهول والربا أغاني الربيع القريب، وكانت أغصان الأشجار الهامدة

ترقص طرباً بعد أن زرع الماء في عروقها نعمة الحياة والأمل، وانتشت نفس عائشة بهذه الأنغام، فلم تعد تشعر بالوحدة التي كانت تمزقها كل مساء برغم هول السماء وقصف الرعود وتهاوي الأمطار. سارت بعينيها الحالمتين على قارعة الطريق الممتد، اجتازت روابي وهضاباً وصحاري؛ لتسمو إلى قمة الجبل حيث الخضرة والنضرة، تلك القمم التي أضفت عليها قطعان الغنم المنتشرة حولها بهاء وحسناً، كانت تجري هاربة من هذه النعمة الكبرى، بل من هذه الصاعقة المفاجئة ولما تظهر النعمة بعد!..

تعجبت عائشة، إذاً كيف لهذه القطعان المصبوغة بلون الغروب أن تهرب والجوع والظمأ يطويانها، لماذا لا تمد أعناقها إلى السماء لتشرب ماء تتدمل به شقوق الظمأ، وتتطفئ منه جمرات الجليد التي طالما تجرعتها صباحاً، نعاج هزيلة ذابلة، لكنها لن تشعر بالجوع بعد الآن مادامت السماء قد جادت عليها بما يخرج لها كلاً من جوف الأرض التي أصابها العقم حيناً من الدهر.

امتد بصر عائشة إلى الأفق البعيد، تبعته حيث شاء، فترأت لعينها الشجيرات الظمأى تتمايل بعد أن لامستها هبات ريح وأثلها المطر. رائحة التراب المبلل تعطر البيت بأريج عذب، وعائشة تستنشقها بنهم شديد غير عابئة بقطرات الماء التي كانت تتساقط من حولها برتابة عبر مسامات الديس والبردي، منذ أن دخل هذا المنزل وقطرات الماء تنزل من سقفه المهترئ بانتظام وحنان، فتبعث الدفء والسعادة في نفسيهما وكأنها ضيف يزورهما كلما أنجبت السماء المطر، فيستقبلانه بقلبين مضمعين بالحياة، وينظران إليه مراقبين حركاته



البطيئة مصغيين إليه، وهو ينشدهما أحنأ عذبة دافئة كقلبيهما. لم ترحب عائشة بضيفها هذه المرة، فقد كانت مشغولة عنه بالانتظار، ظلت تأنه ساهية، تقف في شبه غيبوبة تراودها أحلام المستقبل الزاهر، وتخنقها أطيايف الماضي البعيد التي ترسبت في الذاكرة، وظلت تبسط راحتين خفيفتين لترحب بالمستقبل المجهول، وتستغيث به؛ ليمحو مجلد ذكرتها من ذكريات الماضي الدفينة.

ستغرس في الغد القريب وردًا في الحديقة الصغيرة، وردًا أبيض، وشجرة تين، ولوزًا، بعد أن مات كل ما غرسته من جراء إمساك السماء، كانت تعيد الزرع في كل مرة، وفي كل مرة يكون الجفاف أقوى، يفرض قسوته على الجميع صيفًا وشتاءً، خريفًا وربيعًا.. الماء دائمًا.. الماء.. الحياة.. الربيع والخضرة والأمل.. تهذات عميقة انبعثت من أعماق نفسها المكلومة وهي منتصبية في مكانها أمام الكوة الصغيرة في تلك الزاوية المظلمة من البيت، فبصرها يمتد إلى اللانهاية، وحبات المطر ترقص لها رقصات منتظمة، ويلوح البرق من حين إلى حين، فتمتلئ مخيلة عائشة بالأحلام والآمال العريضة، ويسمح القلب الخائف لبصيص الأمل أن يكبر وينجب سعادة ليست ككل سعادة، فاضت من بين جوانح عائشة وهي واقفة في هدوء وصمت غريبين، وغيبوبة لا معتادة. غير أن طائر الليل رفرف فوق رأسها بجناحيه الأسودين، وغطى المزرعة والوجود بلحاف أسود داكن أخرجها من بحر أحلامها الكبيرة.. لم تعد تبصر شيئًا، امتزج الحزن الداكن.. بالأمل الصغير.. بالليل.. فملأ عليها الدنيا سوادًا، غطى الليل كل شيء، ولم تعد عائشة ترى سوى قطع بيضاء كانت تجري في الفيافي هاربة.

انساب إلى مسامعها صوت قوي كصوت إعصار، فيضان جارف، بل فيضانات عارمة تهمر من سفوح الجبل الشامخ، فتسوق كل ما تجده في طريقها بعشوائية ساخرة.. كالموت.. فتسير حيث قدر لها أن تسير، أو هكذا خيل لعائشة أنها تسوق كل ما تجده أمامها. منذ أن ارتبطت بهذه المزرعة لم تر يوماً كهذا، تجاوزت السماء مقدار السخاء والعطاء، أفاض سخاؤها بركاً فترقرق ماؤها وتدقق، وملاً غدراً كانت بالأمس ناضبة، وودياناً جف ماؤها، والأجمل من هذا وذاك حمل الأرض الوديع، حملت الأرض وستجب عن قريب أحسن مولود مع الربيع الذي سيولد قريباً.. وماذا بعد؟ القطيع، قطيعهما الذي لن يشعر بالظمأ والجوع، وسوف تجود عليهما الشياه بحليب معسول.. القطيع.. وأين ذهب القطيع الآن؟ عادت إلى خوفها الذي ظل يكبر ويكبر تحت الظلام، وراعها الظلام، فأشعلت الشمعة الأخيرة، وراحت تنتظر بقلب يعصره الخوف.. قدوم محمود والقطيع!!

قضت نصف ليلتها تنتظر، وعيناها تلازمان الشمعة وهي تودع الحياة بدموعها الحارة الصافية.. لو كان محمود حاضراً لأطربها بنايه، ولعبر عن فرحته الكبرى بأنغامه الحلوة التي تتبعث من جوف الناي كلما أمطرت السماء. الانتظار المرير وصخب السيل الجارف يعذبان قلبها المرتجف، أنغام صاحبة عنيفة عزفها السيل، فأضمرت النار في فؤاد عائشة المنتظرة، وراحت تزرع البيت بقلب مضطرب خائف على الزوج الغائب والقطيع. تساءلت عن سبب هذا الاضطراب والخوف، وقد مرت بها ليالٍ أقسى وأمرّ من هذه، ولم تفقد فيها طمأنينتها، حينها عزت النفس وأنبثها فاستعادت بعض ثقتها القديمة

بعد أن ذكرت نفسها بقبسات الإيمان والصبر القديمة. ما هذه المرة الأولى التي يغيب فيها محمود عن البيت..!

حاولت أن تستسلم للنوم، وقد أقتعت الفؤاد أن محموداً قد نام.. مثلما تعود المبيت مراراً بعيداً عنها، أطفأت الشمعة قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة وقبل أن تقضي نحبها، إلا أن الأرق بات يداعب جفنيها الناعستين ويغالبهما. وأخيراً استسلمت للنوم، وقبس من النور يملأ قلبها فتغمره السعادة بما سيحويه هذا البيت من فرح الاثنيين. البيت الذي نسجت في زواياه الملتوية العنكبوت خيوطاً متشابكة كهذه الحياة سيصبح أكثر جمالاً وهدياً، سيصبح وديعاً كثيراً متدفق من الصفاء، لن يسمع بعد الآن شكوى أو زفرة ألم، ولن يتردد صدى تنهدات عميقة. حاربت طيف الهواجس واستسلمت للكرى، نامت نوماً عميقاً تخللته أضغاث أحلام وأشباه رؤى... الورود، الزروع، السهول والروابي، وهذه الأرض البكر سيستفيق كل ما كان هاجعاً في أحشائها بعد أن رواها الغيث، ولكنها لا تتجب الورود والرياحين فحسب إنما تتجب السدر أيضاً والأشواك والعلقم...!

استيقظت مذعورة خائفة بعد حلم مزعج، كانت تمسك رجلها اليمنى ظانة أن شوكة السدر لا تزال تؤلمها، فقد تراءى لها الألم قريباً، والدم يقطر من قدمها، جرت في صحراء الدار فلامسها الماء، حينها استفاقت من حلمها وأدركت أنه كابوس مزعج، وتذكرت أن محموداً لم يعد بعد، وأن الضيف الذي أنسها في وحدتها القاتلة هو قطرات الماء التي باتت تنهال من سقف البيت المهترئ..

أولم يعد محمود بعد؟!.. عادت الهواجس والشكوك إلى القلب الخائف.. وبعد تردد شديد لفت شعرها الأسود الطويل، وراحت تسعى إلى بيوت القرية تسأل عمن رأى محمودًا. لم يدلها أحد عليه، فراحت تجري والخوف يدفعها في الحقول والفيافي تبحث عن محمود والقطيع.. جابت الروابي والسهول، الشعاب والوهاد، لم تعد تدري أين هي، وإلى أين تسير! فقد كانت في عراق شديد مع الأحوال غارقة في بحرها، وكان صوت الفيضان العارم لا يزال يعذب قلبها منذ البارحة وهو يحصد كل ما يجده في طريقه. تقدمت منه وراحت تسير معه جنبًا إلى جنب تتبع تدفقه الهائل بخطى سريعة، وكلها أمل أن تجد محمودًا والقطيع في إحدى المساحات الكبيرة يستبشران ويمرحان! تمت أن تجده جالسًا جلسته العذبة، يعزف للقطيع لحنه الرائع والخراف ترقص لأنغام الحب والأمل.. وكانت تجد نفسها بين الحين والآخر شاردة الذهن، هام نظرها في الأفق البعيد، وفيه تابعت معركة صراع محتدم بين غرابين يتبارزان حول الموت والحياة، دفعها الفضول إلى متابعة هذه المعركة العنيفة، غير أن عثرتها شغلته عن كل ذلك كادت أن تهوي في فم التنين الكبير الجائع. ناي ازدانت به الأرض، فأراد أن يجذب إليه عائشة؛ لتزدان الأرض بضافئرها.

ليس المهم عندها السقوط ولا الناي، محمود والقطيع بغيتها، نظرت إلى الناي بازدراء فواصلت المسيرة ولكن شيئًا فيه جذبها فعادت إليه لتأخذه هدية لمحمود عندما تخرج الأرض حملها. حملت الناي وبسمة شاحبة تملأ فاهها ربما لما ستزفه لها الأيام. سارت والأمل في عراق عنيف مع أشباح الخوف وأطيافه التي غزت وحدتها وسكنت



بين جوانح نفسها الدامية الجريحة. وتعثرت عائشة ثانية في عصا يغطيها الوحل، وتتدلى منها خيوط ذهبية تطوق رقبتها، تخيلتها عائشة ثعابين تفتح فمها لالتهام ما حولها..

- أهذه عصا محمود؟ قد تكون!! محمود الذي أقسم ألا يترك الناي والعصا ما عاش، وهل الحب الذي يمنحهما يقل عن حبه للقطيع؟ أبداً.. هذا كل ما يملكانه ويسعدان به.. وإذا الناي نايه! يتركهما هكذا.. ثم تحاول إبعاد الهواجس أو الحقائق، قد يرمي بهما ولم لا؟ قد يضحى بهما في سبيل القطيع.. لا لن يفرض فيهما بهذه السهولة، لن يعملها محمود أبداً. هي تعلم أنهما عزيزان على قلبه.

ملاً الناي والعصا عليها كل شيء، حاولت أن تخطئ بصرها الحاد وبصيرتها الحية المتيقظة، ما هذه عصاه ولا هذا نايه!!

ازدادت جرياً وراء الحقيقة الفارة منها وازداد الحذاء تعلقاً بالطين، فتخلصت منه وتركته للأرض تبتلعه، احمرت قدمها من الجري ولبستا حذاء طينياً جديداً، وسال العرق دون جدوى، لم تجد شيئاً غير العصا والناي، وماذا يجديان؟ إنهما يزيدان القلب عذاباً وجراحاً. توقفت عن السير، وتركت الفيضان يواصل سيره، وراحت تتأمل الدنيا، وتبحث عن الطريق الذي يعود بها إلى البيت؛ عليها تجدهما ينتظرانها، فبصيص الأمل لم ينطفئ بعد!!.

ارتمت بين أحضان البيت الصغير تحمل أعز ذكري وعادت إلى الانتظار والوحدة القاتلة التي طالما عذبتها، وزف لها الخبر بعد أوأنه -فقد حدثها به نفسها المكلمة- من طرف أحد الجيران الذي

عافاه القدر بعد أن أراحه من القطيع.. أما محمود فأبى السيل إلا أن يحتضنهما معاً.

أحاط بها الجميع وكل واحد يبحث في ذاكرته النائمة عن كلمات لمواساتها، توارثوا عبارات التعزية والمواساة غير أن ذلك الجفاف والقحط المهول جمد في حلوهم الكلمات لكنه لم يقتلها وها هو الطوفان يذيبها بعد أن هجعت، لن يقبلها لأنها هجعت متظاهرة بالموت، وها هي الآن قد استفاقت من نومها وقفزت متلعبة على الشفاه الجافة المرتجفة، الخائفة حتى من الماء. زودها الجميع وملؤوا أذنيها بكلمات لن تجد غيرها في قاموس الصبر، غير أنها كانت تتف في تلك الزاوية من البيت تنتظر لحظة الانفجار الأخيرة.. تحدث الدموع والأسى أول مرة، وخنقت الدموع في الأحداق والأسى أول مرة، وذابت الأحلام في بحر الحزن العميق.. وتلاشى كل شيء في رحم الماء.. لكنها كانت أقوى وأنشط.

عائشة بحدادها الطويل ووحدتها الرهيبه أقوى إرداة.. بحزنها العميق وكأبتها السوداء وجراحاتها التي لم تلتئم بعد أبهى من هذه الأرض المستبشرة بالمولود الجديد الذي سيأتي مع الربيع القريب.. بتحديها للألم سدت طريقاً في وجه الأحزان والمخاوف؛ لأنها علمت أنه التلاشي في رحم الله.. التلاشي الذي تأتي بعده الولادة الجميلة قريباً..





غصن التينة!!

استسلم أهل البيت لنوم عميق بعد أن هدأت الرياح قليلاً، ولكنها ما هدأت إلا لتستجمع قواها وتنهض أشد وأقوى، وما هدأت إلا لتمهل هؤلاء المتعبين من التفكير، المتخمين بسهام الكلمات المحرقة، والخارجين لتوهم من حرب الكلمات التي أدمت الأفئدة، فراحوا يتكلمون دون تفكير، وراحوا يطلقون النار على غير ملهبها، ولكنهم الآن ناموا بعد أن هدأ صرير الرياح القوية، ولم يعد هناك غير جسد يتحرك فوق الأرض، وروح هائمة في السماء، تقلبت في فراشها يميناً وشمالاً، ولكن الأرق أبى إلا أن يزورها مثلما تعود أن ينزل ضيفاً عليها.

رحبت كعادتها بهذا الضيف الذي وقف بين يديها؛ عله يقاسمها وحدتها وهمومها؛ عله يبكي معها بصريره القوي أو يبكي معها الأشجار فتتفض أوراقها لتسوقها رياح الخريف كما تسوق كل شيء.

أزاحت الغطاء، وراحت تتفرس في وجوههم، وهم يغطون في سبات عميق، لماذا لم ينزل الأرق بأحدهم؟ لأنهم يحسنون الكلام جميعاً؟

أما أنا فمازلت صغيرة لا أفقه شيئاً منه، وإن أحسنت الكلام، فالقانون لا يسمح لي بالتكلم؛ لأنني مازلت صغيرة! هأنذا وحدي الآن سأتكلم ما شئت.. سأقول كل شيء للنجوم!!

آنستها الرياح بعزفها الصاحب بسقف البيت القصديري وبأغصان شجرة التين التي أخذت تبكي مع الطفلة أو تبكي لها، فالبكاء حرام عليها، ولم البكاء؟! لم يعد البكاء في نظر الطفلة دموعاً ساخنة تذرف وتبلل الوجه وإنما ألف ضحكة أو بسملة تنجبها الشفاه، والقلب باك، والنفس مكلومة، وحتى هذه الطريقة التي اهتدت إليها، فإنها لا تدري كم ستدوم؟! ستتسلى بها لتبلى، وتبحث مرة أخرى عن طريقة جديدة للبكاء تحت ضوء النجوم.

في الموسم المقبل أحست بتيار متدفق من الكلمات تتصاعد وتتسابق للخروج، ولكن الحنجرة كانت باردة! وها هي الآن.. الكلمات تتصارع لتدوي في هدوء المنزل وصمته الرهيب، أحست بحاجة إلى الكلام.. إلى البكاء.. فقامت من مكانها بكل هدوء، وراحت تمشي بخطوات خفيفة خائفة؛ خشية أن توقظ أحدهم أو جميعهم، وما هي إلا لحظات حتى أصبحت خارج الدار، الآن تستطيع أن تتكلم.. أن تبكي.. أن تقول كل ما أحببت أن تقوله، وتطلق العنان للكلمات المتصارعة؛ كي تخرج، ستقذف الحنجرة بأكبر كلمة وأثقلها لتلوكها الشفتان، وينتشر صداها، ويختلط بخيرير الرياح الباكية، أمسكت بغصن الشجرة الباكي، وراحت تنتظر القذيفة الأولى.. غير أن الكلمات أبت الخروج إلى الظلام والوحدة، وإلى التبدد في الفضاء، أبت إلا أن تسكن في حنجرة الطفلة وقلبها المضيء.



هذا الغصن الشامخ كان بالأمس فقط يبدو بعيداً، وكم تمت أن تكبر لتمسك به مثلما يفعل إخوتها، وكانت رفعت إليه عينيها؛ لترجوه أن يدنو منها، وتمد ذراعيها، وتحلم بيوم تدرك فيه الغصن.. اشتدت ملاحقتها للغصن، وكثر وقوفها تحت الشجرة، وفي كل مرة تجد الغصن قد اقترب.. بل ساقاها وذراعاها هما اللتان اقتربتا، الغصن يتناول والطفلة تجد نفسها في كل مرة أقرب وأقرب، وها هي اليوم تمسك به، وتتذكر أملها الصغير، وحلمها الباهت كيف غدا عذاباً؟!!

- كم لاحقتك أيها الغصن! كم تسلقت لتلامس كفاي أوراقك الخضراء! وكم قفزت لأمسح عنك الغبار! أو أقطف حبة تين! وهأنذا أقف أمامك وأمد ذراعي؛ لتعبث الأصابع بوريقاتك، هل كبرت حقاً وأصبحت مثلهم؟ أم أن ساقى هما اللتان ارتفعتا لتلحقا بك؟ أم أنك انحنيت لتقبل يدي اللتين لا تزال تغلفهما مسحة البراءة الطفولية؟..

- أبداً، فإنك لا تزال فارغاً في شموخك وتناولك، أنا التي كبرت وعمري صغير، أنا الطفلة التي أصبحت امرأة بسببك يا غصن.. عذبتني يوم كنت صغيرة أطاردك، ولما كبرت وكبر ألمي وعذابي معك، كانت الفرحة كبيرة يوم رفعت إليك عيني فرأيتك قريباً، ويوم امتدت يدي لتلعب بأوراقك، ولكنها ماتت في يومها؛ لأنني أصبحت في نظر القانون امرأة لا يسمح لها عمرها الصغير بالكلام.. الأعمار عندما تقاس بالأغصان والأشجار.. سأروي أيها الغصن، هذه الشجرة لترتفع أنت وتسمو، وتغدو بعيداً لتخفف الكلمات، وتكبر فرحتي، ويبقى القانون حائراً...».

وهي واقفة تناجي الغصن والنجوم سابحات في السماء أحست بدوار شديد يغزو رأسها، ارتخت العضلات، وسقطت اليد المتعبة المسكة بالغصن.. أمسكت الطفلة الكبيرة بجذع الشجرة، وظلت تتابعه بيدها إلى أن استوت جالسة تحت الشجرة وضوء القمر، مدت ساقها فوق التراب وفوق أوراق الشجر المتساقطة، اتكأت على جذع الشجرة، وراحت تتأمل ساقها اللتين كانتا بالأمس فقط صغيرتين.. يوم كانت تجري مع إخوتها وأترابها، أما اليوم فلم تعد تستطيع الجري أو اللعب، ليس أمامها سوى الجلوس أمام الدار وتأمل الرفاق الصغار وهم يلعبون ويمرحون؛ لأنهم لم يبلغوا بعد غصن التين المحدد!!

التخلي عن اللعب سهل جداً.. وهي طفلة لم تكن نفسها تميل إليه كثيراً، فكيف تعشقه اليوم؟! ربما دنو الغصن منها هو الذي جعلها تفكر فيه، وتشناق إليه أكثر مما مضى، وفي كل مساء يجتمع فيه الأولاد للعب تجلس في ساحة الدار تتأمل البنات وتضحك على غفلتهن وغفلتها، فقد بياغتهن مساء، ولن تخرجن للعب إذا أدركن غصن التين بأيديهن الصغيرة..

تخلت الطفلة عن اللعب، ولم تعد تفكر فيه، ولم تعد تراقب الأتراب؛ لئلا ترى السرب قد أخذت عصافيره تدخل أفضاصاً من حديد كل يوم..! ولكن الذي لم تستطع أن تقبله نفسها الطفلة هو الدراسة، فهل تقاس الأعمار بغصن التين.. وبالطول والقصر؟.

منذ أن سمعت أباها وإخوتها يتحدثون عن عمرها المقيس بالغصن، وهي تتألم وتبكي، ولا أحد يراها، الأرق يعذبها كل يوم، عندما يخنق



القانون الأعمار، وعندما يقاس العمر بالطول، فإن الأرق حبيب الجفون
يلاعبها، يبكيها، ويضحكها، يقاتل خوفها من الظلام ووحدتها القاتلة،
ولا يفادرها إلا فجراً فتتهجج قليلاً لتبدأ الحياة من جديد حركتها.

كانت أختها الكبرى عندما لامست غصن التين.. وعندما ارتفعت
ساقها توقظها كلما زارها أرق الخريف لتقاسمها الوحدة والعذاب،
فلم تكن تجد بدءاً من البكاء معها أو الضحك عليها.. ولكنها بكت ذات
يوم؛ لأن عذاب أختها أصبح عذابها، وسمعتهم يتحدثون عنها:

- سلمى كبرت ولن تخرج بعد الآن.. كذلك آمال كبرت.. إنها
لا تزال صغيرة!!

ووقع جدال حولها، عين تراها قد كبرت وأخرى تراها صغيرة! حينها
سكن الخوف قلبها، وبعد أن كانت تضحك على سلمى أصبحت تشاركها
ألمها، وتقاسمها الهم والوحدة، ولكن بنفس مطمئنة.. مازال الخوف
لم يسكن قلبها بعد، فعين الأب تراها صغيرة، إذا بكت مع سلمى ورثت
لحالتها، وإذا أرقت لهموم سلمى التي بكت حيناً وعادت إلى الدراسة، ثم
زارها الأرق في الخريف المقبل وعذبها الانتظار والبكاء، فكانت آمال
تستيقظ معها، وتعودت أرق الخريف وانتظاراته الممزوجة خوفاً وأملاً،
وعادت إلى الدراسة، فضحك فؤادها وفؤاد أختها، ولكن هذه المرة
أصبحت كبيرة حقاً في نظر القانون، عندها وبعد فقدان الأمل بكت
وبكت معها آمال! أما اليوم وقد تعودت على الأرق والخريف، فإنها لن
تبكي أبداً، لماذا الخوف، وهذه هي الأيام الأوائل من الخريف؟

ومضت السنون جارية، وألفت أختها الكبرى الدار، وأتقنت كل ما
فيها من أعمال.. لم تعد سلمى طفلة، إنها امرأة بمعنى الكلمة!!

راحت الطفلة تعصر ذاكرتها المتعبية؛ لتجود عليها بذلك اليوم الذي لزمته فيه سلمى الدار.. بكت سلمى أياماً وأشهرًا عندما أوقعت عن الدراسة، ولا ذنب لها سوى أن يدها أدركت غصن شجرة التين!.. عذبها الأرق أشهرًا، وكانت كلما اشتد بها الألم أيقظت أختها لتسليها، هذه الطروب الضحوك التي كانت تهزأ منها وتضحك عندما كانت العبرات تغلب سلمى، فتزلق فأرة منها.. كانت هي تضحك من ضعفها وخوفها:

- لو كنت مكانك لواجهتهم جميعًا، لثرت في وجه أبي وإخوتي جميعًا، أنت لم ترتكبي ذنبًا، وما ذنبك إذا كبرت واكتنز الجسم؟!

ولما تعودت على دموع سلمى بكت معها، ثم بكت لما ربطوا مصيرها بمصير سلمى، ثم أصبح الأرق رفيفها.

ذكريات أليمة انبعثت إثرها، تنهدات عميقة من الطفلة المرأة في نظر القانون، وراحت تضحك على نفسها:

- ها قد حان الأوان وأعاد الزمن الكرّة معي. لماذا لا أواجه والدي؟ ولكن ماذا سأقول له؟ إنني لأخجل حتى من تحيته.. من شكره.. فكيف سأتكلم معه وأنا الطفلة التي لا يسمح لها القانون بالكلام؟ وهل تكلمت عندما أوقفوها عن الدراسة؟ هل تكلمت سلمى عندما زوجها؟ أبدًا استسلمت سلمى ورضيت.. لست أدري، الصمت هنا في هذا البيت وفي معظم بيوت قريتنا هو الدواء! لكي تكون المرأة امرأة في نظر القانون يجب أن تسكت، يجب أن تطيع، يجب أن تقتل حتى الدموع والأسئلة عن سبب حزنها، وإذا عرف السبب أصبحت في نظر الجميع متمرده! حتى الدموع والأنين والتأوه تمرد، الهزال تمرد..

يوم غاصت عينا سلمى، ويوم اصفر وجهها والجبين، سألتها الوالد عن سبب الهزال، فلم ترد عليه بشيء وظل يمطرها بأسئلته وهي صامتة لا تجيب!!

وراحت الطفلة تسأل القمر والنجوم عن سر سلمى، أسعيدة هي؟ أنسيت سلمى الدراسة؟ وكانت تجيب عن أسئلتها الحائرة بأن سلمى قد تكون سعيدة؛ لأنها استطاعت أن تقتل دموعها الغزيرة في أشهر، واستطاعت أن تسكت طيلة ثلاث سنوات غير أن وجهها يوحي لها بالسعادة والألم، سعادتها لما أضيفت إلى قاموس النساء، وأما الألم فلا حدود له.

-رباه يا رحمن! ما ذنبي عندما ترتفع ساقي؟ ما ذنبي يا رباه! عندما تطول يداي؟ ما ذنبي عندما أدرك الغصن؟ ما ذنبي عندما تكبر الطفلة ويكتنز جسمها؟! كانت السماء صافية والنجوم تضيء الكون، وكانت الطفلة ترى القوة فيها، فلا تبرح تنظر إليها سائلة، متأملة، مقتدية.

قد تنسى سلمى، وقد تسعد مثلما تسعد الأرض بجراحاتها؛ لأنها تعلم أن الجراح تجعل منها أمًّا لألف وليد، ومثلما تسعد الأشجار بريح الخريف التي تجعلها أجمل وأبهى عندما يأتيها الربيع ضاحكاً.. مثلما يسعد هؤلاء تسعد سلمى بقلبها الكبير وحبها الذي يفيض على الجميع، عندما تصبح سلمى أمًّا تكون أسعد، وعندما..!! ولكن هل تسعد النجوم عندما تختفي في السماء، وترتسم على سطح بركة هادئة؟ أبداً لن تسعد النجوم ولن تسعد أمال؛ لأنها لم تحب النجوم إلا لأن أرضها السماء..

تهذات عميقة وأفكار كبيرة زاحت رأس آمال الطفلة المرأة،
فنهضت بتناقل كبير ومدت يدها إلى الغصن، فخالته بعيداً بعيداً،
وراحت تمد يدها إلى أن استوى في قبضتها الطفلة، وراحت تعبت
بأوراقه الصفراء الشاحبة التي أتت الرياح عليها، فلم تبق منها إلا
القليل.. كانت أصابعها تنتزع الأوراق، ونفسها ترسم مخططاً للحاق
بالنجوم، وتجاوز هذا الغصن المتكبر في تعاليه، الرافع رأسه إلى
السماء؛ حتى لا يجد الناس غصناً آخر لقياس الأعمار!

- سأدوخهم في البحث عن غصن يقيسون به أعمارنا، فلن يجدوا
حينها إلا الأعياد والمواسم.. فلانة عمرها أحد عشر عيداً، والأخرى
اثنا عشر عيداً.. وأنا كم عيداً عمري؟! عندما أسأل والدي غداً
سأعلمكم كم عمري..

- سأأكله غداً، إذا لم أعد إلى المدرسة، فمن سيكون الأول؟! لا،
لن يكون.. لا، لن أقبل هذا.. لن يكون أحد قبلي.. أنا الأولى، سواء
ذهبت إلى المدرسة أم لا.. وسأظل إذا أردت..

تبدد الألم وأشرقت العينان، غزاهما بريق حاد كبريق هذه النجوم،
بريق يحمل التحدي سلاًحاً والأمل الكبير الذي أنجبه القلب برغم
عمرها الذي بلغ الغصن.. دخلت البيت بخطواتها الهادئة الرزينة،
استوت على الفراش، تقلبت يميناً وشمالاً، لكن انتظار الصباح زرع
الأرق في جفونها، فسبحت في أحلامها العريضة وآمالها الطويلة بعد
أن هدأت الرياح، وراحت تنتظر الصبح؛ لتكلم والدها؛ كي تحطم قانون
الأعمار، وتعود إلى المدرسة قبل موت الخريف، وقبل موت الأمل الذي
أفعم قلبها، فقتل كل ألم فيه وحيرة!!



رائحة النعناع

ضغطت أصابعه السمراء النخيفة المرتجفة على الزر، فغيم
الظلام على الركن الصغير الذي ينزوي فيه كل ليل، حيث الكل نيام،
ذلك الركن الكالح، الحزين المظلم حتى في النهار. تناول الغطاء
الثقيل وراح يلف به الجسد البارد، ويخفي وجهه من لفحات البرد،
أخذ يتخبط تحت الغطاء ويتقلب.. يبحث عن قبس من الحرارة في
أعماق شرايينه الباردة المتصلبة، الغطاء يرتفع، ولفحات البرد تلتف
حول الجسد المنهار، تلسعه فيختطف ويتقلب.. يتلوى.. ويعلم بالدفء
الذي يملأ أنفه كل يوم، عندما يعود في وقت متأخر من الليل إلى البيت،
عندما لا يجد أحداً ينتظره، عندما يشتم رائحة في الدفء تتسرب
من مضاجعهم، يملأ الحزن قلبه.. يذبل بريق عينيه البحر المتأجج..
ويغرق في تساؤلات عديدة.. أهكذا كان بيتنا بالأمس؟ أهكذا كان حال
أسرتنا بالأمس؟

بالأمس فقط كنا إذا تأخر عضو من هذا الجسد الراكض نحو
الانهيار والضياع، نظل في انتظاره، ولا نبیت ولو تأخر بنا الوقت، ولو

داعب النعاس الجفون! هكذا كانت أسرتي في الزمن السحيق الذي
ولى ولم يعد..

انطفأت شعلة الحنان التي كانت تعيش بالأعماق، ذبلت، ماتت،
ذهبت جذوة الألفة التي ألقته يد الإله في القلوب.. وكانوا هم السبب
في موتها.. بل كنا نحن سبب موتها، فقد أدخلناهم إلى بيوتنا ضيوفاً
نتسلى بهم فصاروا أربابها ونحن العبيد، لا نسير إلا على هديهم الذي
أورثنا الرذيلة والتدني، ولا نمشي إلا بإشارات وهمسات منهم، فنسقط
كما يريدون لنا..

الصداع يخنق مخه.. يريد أن ينفجر.. ويفجر ذلك الرأس
المشحون بأحزان الدنيا وهمومها. أحس فجأة بالاختناق.. بالبرد..
بالغثيان.. أكاد أعتق الظلام.. الرائحة التي كانت دواءه وشفاءه
صارت اليوم علته.. الرائحة تهاجم الأنف الأشم.. تهزمه وتدخل إلى
الرئتين المفعمتين بغازات العصر ودخانه الكثيف. تمازج الرائحة التي
غدت سر عذابه، القصبية الهوائية، تتسلل إلى الشرايين.. تختلط بدمه
البارد، ينكمش في فراشه الحزين، يتلوى.. يحاول أن يعتمر الرائحة
من دمائه، يطردها عن كيانه وينفثها من حيث دخلت.. ولكنها تعيد
الكرة، تعيد الهجوم.. رائحة النعناع التي كانت بالأمس شفاء الفؤاد
ومناه صارت اليوم عذاباً..

- إنني أختنق.. أيها النعناع، ابتعد عني، أيها النعناع، تغرب..
واغربي أيتها الزهرية.. اغربي عن وجهي، اسقطي، تكسري، فنعناع
القلب طالت جذوره، وامتدت فروعه، وصار يرفض رائحتك المزيفة..

إنني أتنفس النعناع، إنني أختنق.. الأرق.. القلق.. اهجريني أيتها
الرائحة، التي طالما ناجيتها وبت الليل أملاً رثتي بأريجها. لا شك أن
النعناع قد أطعمته الزهرية الساحرة بسحرها، وخنقت عطره الفواح،
خنقته وأعطته أنفاساً جديدة، لم تعد عربياً أيها النعناع، ما داموا قد
استوردوا زهريتك من وراء البحار.

كان الجسد العربي الأصيل يلتف في غطاء غير عربي، ولباس غير
عربي.. بالأمس فقط كان يقضي الشتاء ملتفاً في برنوسه الأبيض أو
الأدع الذي حاكته يدا والدته التي هجرت للحمّة والنول والسداة
واستبدلت بها خيوطاً قادتها السفن القادمة من وراء البحار، بالأمس
فقط كان يلتف في غطاء حاكته يداها الطاهرتان.. كان بالأمس القريب
ومهما تأخر به قطار الليل يعود فيجدها تلهو بمغزل أو مشط، وبصوف
شويهات، ولكننا اليوم أصبحنا نبيع الصوف لأيدٍ تتقن الخداع؛ لتحريك
لنا ما تحب أن نلبسه كما تريد هي، ولتفصل لنا ما نلبس على قدها
هي. إذا أعطيناها صوفاً دفعنا الثمن، وإذا استرددناها دفعنا الثمن،
وإذا أخذنا منها لباساً وغطاءً دفعنا الثمن، برغم الجليد الذي تأتينا
محملة به.. فإلى متى نظل وحدنا ندفع الثمن؟!

الدفء يتسرب من البيت الآخر حيث القلوب العامرة الناسية ما
يحاك حولها صباح مساء، والباحثة عن نوم وطعام وماء.. أنفاس النوم
تتسرب من هناك، وأنفاس الدفء تحاول أن تخامر أنفه المتعب من
الروائح الغريبة، ورائحة النعناع تحاول خنق آخر الأنفاس، تضرب عليه
حصاراً يتشابك وخيوط الغطاء العربي الأملس الخشن.

- متى أنام يا ليل؟ متى تأذن للأرق بالرحيل وتوديع جفوني المتعبة؟! هل أنام؟ متى أنام أيها النعناع الغريب، المتغرب عن بلاد العرب؟ متى تهجر رثتي وأنفي؟ متى تحررني من قيد رائحتك الممزوجة بنساءم الزهرية المستوردة من وراء البحار؟!..

لفحات البرد تسع جسمه الثائر، الفاضب على الأرق، وعلى خيوط الغطاء الجرداء من لمسات الحنان واللين، العارية من كل طبيعي، ورائحة النعناع تزكم أنفه الذي كم أرغمه على الجلوس ساعات طوالياً بالقرب من جنة النعناع، هي جنة غرستها يداها، وروتها كما روتها روحه، فلما بالأرض نعان، وبالقلب نعان نضير أخضر. أشفقوا عليه من تلك المناجاة الطويلة للنعناع، فجاءوا به إلى حجرته، لكنهم قتلوه بذلك الإناء المسدود الذي وضعوه فيه، خنقوه، فتغيرت رائحته، وغدا وكأنه رائحة أشجار الدفلى المطوقة للوديان.

- أريد أن أنام، متى أنام أيها الزمن المفعم بالدخلاء، وبالزاد القادم من وراء البحار؟! متى أحرر ذلك النعناع من رائحته الجديدة؟! متى أحرر الغطاء من خيوطه الغريبة؟!..

تلوى، التف حول نفسه.. انكمش.. دس رأسه تحت الغطاء البارد مثل خيوطه وسداته. ولكن البرد بات يغزو جسمه المنهك، ورائحة النعناع باتت تملأ رثتيه وتمتزج بدمائه.

تمرد العربي الثائر على الغطاء، وراح يقلب في خزانة ثيابه.. يبعثها يميناً وشمالاً، تناول برنوسه في وقار ولطف والتف فيه، وجرى نحو النافذة المغلقة. اقتلع جذور النعناع وألقى بالزهرية الجميلة، كما



يقول كل من دخل غرفته!!! وجرى لاهتاً بتلك العيدان إلى الحديقة؛
ليعيدها إلى الأرض الأم؛ حتى تطهرها مما علق بها. وبات ليله سامراً
لها، يستنشق أريجها الجديد وهو يردد:

- الآن فقط حررتك أيها النعناع! الآن فقط صرت عربياً أيها
النعناع! الآن فقط أعدت إليك رائحتك القديمة وطهرتك القديم!!!



ibrikana.com

obeikandi.com



منشورات رابطة الأدب

الإسلامي العالمية

- ١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.
- ٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.
- ٣- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.
- ٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبدالباسط بدر.
- ٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.
- ٦- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.
- ٧- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي.
- ٨- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.
- ٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.
- ١٠- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبدالدايم.
- ١١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو.
- ١٢- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.
- ١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.
- ١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قميحة.
- ١٥- ديوان «في ظلال الرضا»، أحمد محمود مبارك.
- ١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.
- ١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

- ١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليلة الحمد.
- ١٩- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.
- ٢٠- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.
- ٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية»، محمد رشدي عبيد.
- ٢٢- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».
- ٢٣- أدب المرأة .. دراسات نقدية من بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلاميات.
- ٢٤- الآمال صارت آلاماً، رواية من الأدب التركي، تأليف د. نور الله كنج، ترجمة د. عوني لطفي أوغلو.
- ٢٥- نحو كوكب الحرية - رواية من الأدب الفارسي، تأليف محمود حكيمي، ترجمة عثمان أيزديناه.
- ٢٦- مملكة النحل - رواية من الأدب التركي - تأليف علي نار، ترجمة كمال أحمد خوجه.
- ٢٧- أقباس - ديوان شعر - طاهر العتباتي.
- ٢٨- الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة - د. كمال سعد خليفة.
- ٢٩- عقد الروح - ديوان - شعر نبيلة الخطيب.
- ٣٠- المفسدون في الأرض - مجموعة قصصية - فاطمة محمد شنون.
- ٣١- فوهة الجرح - مجموعة قصصية - سكينه قدور.



صدر في سلسلة أدب الأطفال

- ١- غرد يا شبل الإسلام - شعر - محمود مفلح.
- ٢- قصص من التاريخ الإسلامي - أبو الحسن الندوي.
- ٣- تغريد البلابل - شعر - يحيى الحاج يحيى.
- ٤- مذكرات فيل مفرور - د. حسين علي محمد.
- ٥- أشجار الشارع أخواتي - شعر - أحمد فضل شبلول.
- ٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب - فوزي خضر.
- ٧- باقة ياسمين - قصص للأديب التركي علي نار - ترجمة شمس الدين درمش.
- ٨- أغنية للغيمة البعيدة - شعر - أحمد زرزور.
- ٩- مغامرات عصفور - قصص - عبدالجواد الحمزاوي.
- ١٠- شيماء - قصص - حسن القشتول.
- ١١- مدينة الرحمة - مسرحية - محمود عبدالله محمد.
- ١٢- بيض من ذهب - مسرحية - لطفي عبدالمعطي مطاوع.
- ١٣- سجين الهاء والواو - مسرحية - محمد عبدالحافظ ناصف.

• تطلب من رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤ - ص.ب. ٥٥٤٤٦

هاتف: ٤٦٣٤٣٨٨-٤٦٢٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦

web page adress: www.Adabislami.org

E-mail: info@adabislami.org

المؤلفة في سطور

- سكيّنة قدور.
- من مواليد شلغوم العيد بولاية مسيلة بالجزائر.
- حصلت على الليسانس، والماجستير في اللغة العربية وآدابها من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في قسنطينة.
- عضو هيئة التدريس بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.
- كتبت بحث التخرج بعنوان: المرأة في المعلقات العشر.
- رسالة الماجستير بعنوان: رسالة المشرق لمحمد إقبال.
- كاتبة قصة قصيرة، وقد فازت مجموعتها القصصية (فوهة الجرح) بالجائزة الثانية في مسابقة الأدبيات بالرابطة.
- عضورابطة الأدب الإسلامي العالمية.

